لا إله إلا الله محمد رسول الله
عبدالودود یوسف

عبد الحميد يوسف

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

دار المكتبي
اعة والنشر والتوزيع

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص. ب. ٣١٤٢٦ هاتف ٢٢٤٨٤٣٣ فاكس ٢٢٤٨٤٣٢

صرخت ساموراً بالجموع :

زوجاً.. لا عشيقاً .

ابناً.. لا لقيطاً.. ولا يتيماً .

أماً لا خادمة ولا ملهاة .

أباً وأماً وأختاً وأخاً في بيت يظلله الحنان..

فهل تفهمون ؟!..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ثورة النساء

من سيدفع تكاليف العلاج؟

كانت الشمس تميل إلى الغروب حينما كانت الأمور تتطور نحو الأسوأ باستمرار بين الفتيان الثلاثة : بورجيه من جهة ، وتوتمان وبيرجان من جهة أخرى . وكانت ساموراً تقف إلى جانب أخيها ضد منافسيه . وأخيراً حدث ما خشيت منه . اختطف أخوها الكرة ، وطعنها بسكين كانت معه ، بعد أن أدخلها توتمان في شباكه ، فربح إصابة ضده . هجم توتمان وبيرجان عليه ، لكنه أشهر سكينه وراح يتراجع إلى الخلف ، بينما كان وجه ساموراً يشتعل بالخوف عليه . أسرع بيرجان إلى حجر يريد أن يرميه به . وقفت ساموراً في وجهه لتمنعه ، ولكنه تخلص منها ، وركض إلى الخلف قليلاً ، ورمى بورجيه بالحجر . كان بورجيه قد سلم ساقيه

للريح فاراً ، تاركاً أخته ساموررا تعالج الأمر مع خصميه .

حاول توتمان أن يلحق ببورجيه ، بينما أسرع بيرجان إلى سامورا . صاحت به : انتبه يا بيرجان ، لست أنا خصمك ، إنه أخي بورجيه . لكنه لم يلتفت إليها ، أمسكها من كتفها ، ورماها إلى الأرض وهو يصرخ : سأمزق ثيابك كما مزق أخوك بورجيه كرتي . وقفت بسرعة ، وراحت تدافع عن نفسها . لكن توتمان ـ الذي رجع بعد أن يئس من اللحاق بأخيها بورجيه ـ أمسكها من الخلف ، ثم رمى بها إلى الأرض . بينما كان بيرجان يشد ثوبها ليمزقه .

اشتعلت بالغضب ، وقفت وراحت تهجم عليهما كاللبوة . إن ثوبها لازال جديداً ، وأبوها لم يشتره لها إلا بعد سنة من الرجاء .

كان أخوها بورجيه ينظر من بعيد ، كانت تناديه ليساعدها ، لكن الجبان لم يلتفت إلى نداءاتها . تركها مع خصميه ، فيئست من أن يساعدها ، فزادت ضراوتها . ألقت ببيرجان إلى الأرض ، وكادت تسحق عظامه . لكن توتمان دفعها عنه ، وهرب وإياه بعيداً .

وقفت وهي تلهث ، نظرت إلى ثوبها الجديد ، فلم تجد فيه أي خرق . ابتسمت ، لقد انتصرت . لكنها شعرت بضربة شديدة من حجر سقط على رأسها . ثم رأت الدماء تنهمر على الأرض . ثم غابت عن الدنيا .

اقترب منها أخوها بورجيه بسرعة . فلما رآها كذلك قال في نفسه : يبدو أن ساموورا قد ماتت ، أسرع إلى البيت ، لم يخبر أحداً بما جرى ، خوفاً من أن يناله عقاب أبيه .

أفاقت ساموورا من غيبوبتها ، فرأت الظلام مخيماً على الدنيا وقفت تريد الرجوع إلى بيتها ، لكن قواها لم تساعدها . فدماؤها لازالت تنزف بعنف . أحست برأسها كأنه جبل . صارت ترى الأشياء مزدوجة . حاولت الصراخ ، لكن صوتها كان ضعيفاً . زحفت على الأرض تريد أن تصل إلى البيت قبل أن ينزف دمها كله ، صاحت بكل ما لديها من قوة : يا بورجيه . . أخي بورجيه تعال إليَّ . لكن بورجيه كان يشخر في فراشه كأنه خنزير . وأخيراً حانت النجاة .

سمعت ساموورا ضحكات أمها من بعيد . التفتت فرأتها تغازل صديقها شاتران . ثم رأت شاتران يضم أمها بعنف . صاحت ساموورا : ماما . . ماما . . أنقذيني يا ماما . . أنا هنا يا ماما . توقفت ضحكات أمها . تلفتت حولها ، فلم تر في الظلام أحداً . عادت إلى حبيبها تغازله كأنها لا تريد أن يلهيها عن حبيبها أحد . لكن صرخات ساموورا تكررت .

أسرع الصديق شاتران . نادته أمها : لا تلتفت إلى ساموورا يا حبيبي ، أظن أن هذه الملعونة تريد أن تشغلنا ، إنها كاذبة . لكن شاتران لم يلتفت إلى سانيت رأى دماء ساموورا فصاح : إنها صادقة

يا سانيت ، رأسها كله دماء . أسرعت الأم فلما رأتها غضبت ، ولكنها ما كانت تستطيع إلا أن تسرع خلف شاتران الذي أسرع بسامورا إلى سيارته . وضعها فيها ، وركبت سانيت معه رغماً عنها ، وأسرعا إلى المشفى لإسعافها .

مضت خمسة أيام وساموراا لا تحس بأحد ، كان رأسها لفافة من ضماد . وفي اليوم السادس فتحت عينيها فرأت أمها تقبع في زاوية الغرفة ، وأبوها يقبع في الزاوية الأخرى .

اقترب منها شاتران وابتسم لها . . واقتربت منها فرانسوا عشيقة أبيها وابتسمت لها . أما أبوها وأمها فكانا يغليان من الغضب . عجبت ساموراا لهما .

دخل الغرفة رجل كبير السن ، يحمل في يده ورقة طويلة . اقترب من سرير ساموراا ووضع الورقة في إضبارتها وهو يقول : هذه ورقة حساب الجريحة ساموراا . أرجو أن تدفعوا الحساب للمحاسب غداً على أبعد حد ، لأن ساموراا ستغادر المشفى غداً .

اقترب بيتان الأب من سرير ساموراا ، وأخرج ورقة الحساب من الإضبارة وراح يتأمل فيها . ثم تمتم : ألف وخمسون فرنكاً فقط . مط شفتيه ، ثم التفت إلى ساموراا بغضب وقال : أيتها الشقية ، لا أرى منك إلا المصائب ، يا ليتك مت كي أستريح منك . بكت ساموراا بصمت ، ثم قالت : يا ليتني مت حتى لا أزعجك يا أبي .

صاح أخوها بورجيه : إنها شريرة.. ضربت توتمان وبيرجان ، فضرباها بحجر . اقتربت أمه منه وقالت له : وتعرف أنهما قد شجا رأسها وتتركها يا بورجيه ؟!.. ارتبك بورجيه ، بينما كانت شهقات ساموزا تتزايد ، ودموعها تملأ وجهها . غادر شاتران عشيق أمها القاعة ، كما غادرتها فرانسوا عشيقة أبيها .

صاح أبوها موجهاً الحديث إلى أمها : ادفعي الحساب لابنتك ، فتحولت الأم إلى مثل الوحش ، وصرخت : ولماذا أدفع أنا تكاليف علاج ابنتك . صرخ بها : إنها ابنتك كما هي ابنتي!!.. وأنا الآن في ضيق مالي ، ادفعي الحساب أنت . صرخت سانيت الأم : لا أدفع فرنكاً واحداً ، إنك تنفق أموالك على عشيقاتك ، وتدعي أنك في ضيق مالي ؟!.. صرخ بها : لا دخل لك بحياتي الخاصة . لن أدفع فرنكاً واحداً . وغادر المشفى وهو يقول لنفسه : ليس من المعقول أن تتخلى سانيت عن ابنتها!! .

لكن سانيت الأم لطمت ابنها بورجيه على وجهه ، وصرخت به : هيا إلى البيت ، وسنرى كيف سيدفع أبوك الحساب . خرجت من الغرفة ، ثم عادت إلى سرير ساموزا ، وأخذت قائمة الحساب من الإضبارة ، وكتبت عليها : إن عنوان والد ساموزا هو :

(٧ـ شارع شارل) .

يرجى الاتصال به من أجل دفع تكاليف علاج ساموزا .

وغادرت الغرفة وهي تقول في نفسها سنرى من سيدفع التكاليف ؟!..

بقيت ساموراً في الغرفة وحدها ، لم يبق في صدرها عويل إلا أخرجته ، ولما أخذ صوت بكائها يرتفع أدخلت رأسها في أغطية السرير ، وراحت تصب الدموع ، وتكبت أصوات نشيجها الشديد :

تركها أخوها للموت بلؤم ، وأبوها تمنى لها الموت . وأمها تركتها للعذاب . . أما العاشق والعشيقة فقد انسحبا بلطف .

امتلأت ساموراً بالخوف والحزن ، تساءلت : ماذا سيفعلون بي في هذا المشفى إن لم يدفع أبي وأمي ما كلفه العلاج من تكاليف ؟!.. تصورت الطفلة ساموراً أنهم سيحبسونها . ونسيت كل شيء حين دخلت الممرضة تحمل إليها الطعام والعلاج . عجبت الممرضة ، لماذا تغطي ساموراً رأسها بأغطية السرير . مسحت ساموراً دموعها ، وكشفت وجهها المحتقن بالدماء . سألتها الممرضة بلهفة : هل يؤلمك شيء يا ساموراً ؟!.. أين ذهب أبوك وأمك ؟!.. عاد النشيج إلى ساموراً . فأسرعت الممرضة وأحضرت الطبيب الذي أعطاها حبة من الدواء ، فنامت ساموراً ، وكم تمنت ألا تفيق .

* * *

سأعمل ثمّ أعطيكم

أفاقت صباحاً. . . لم تر أمها ولا أباها. . دخل المحاسب. . .
قال لها : لماذا ذهبوا دون أن يدفعوا ؟!! أجابت ساموروا : سأدفع
ما تريد. . سأدفع أنا ما تريد. . ابتسم المحاسب وقال : حسناً
حسناً. . ادفعي الآن. . أجابت : لا. . لا. . سأدفع بعد أن
أشفى. . سأعمل ثم أعطيكم. . . .

سألها : وأين ستعملين ؟!. . . أجابته : في أي مكان
تريدون. . . . أجابها : حسناً. . سأسأل مدير التشغيل إن كان
لديه عمل يوكله إليك. . . على كل حال أنا موافق على هذه الفكرة
يا عزيزتي. . . لا تشغلي بالك بالتكاليف. . . أنت صغيرة. .
قاطعته : لا. . لا. . . أنا كبيرة. . . عمري يزيد عن عشر سنين
بثلاث سنين. . لست صغيرة. . قال وهو يغادر الغرفة : حسناً. . .
كما تريدين يا صغيرتي ساموروا. . .

وبعد ساعة دخل إليها شاب وسيم ، سألها : أنت
ساموروا. . ؟. . ماذا تجيدين من الأعمال. . . أجابته : أجيد

الغسيل والكي ومسح الزجاج. . . ثم إني ذكية. . . فأنا الأولى في مدرستي. . يمكنك أن تكلفني ما تريد. . وسترى أنني أتقن كل ما تريدني أن أعمله . تفرس الشاب فيها كوحش. . . ثم ابتسم وقال : حسناً. . ستعملين عندنا في كي الثياب. . ثلاثة شهور. . مقابل تكاليف علاجك. . وستأكلين ما يأكله بقية الموظفين مثلك. . . وسنهيء لك مكاناً للنوم يناسبك. . هل تقبلين ؟!. . أجابت ساموا : قبلت. . قبلت. . فأعطاها ورقة وقعتها. . . ثم ودعها وخرج . أكلت ساموا بشغف. . ونامت طويلاً. . . فقد انزاح عن صدرها هم ثقيل . قالت لنفسها : سأترك المدرسة. . سأعمل منذ الآن. . لست محظوظة مثل رفيقاتي اللواتي يكملن تعليمهن. . سأبدأ العمل قبل أربع سنين. . لكن لابأس. . سأخفف عن أمي وأبي شيئاً من عبئي الثقيل . تنهدت وراحت تحلم : سأعمل وأكسب المال. . سأشتري شقة وسيارة. . وأجد لي زوجاً شهماً أنجب منه الأولاد. . وعندما سيولدون سأبذل لهم راحتي وروحي. . وسأجعلهم يعيشون في جنات النعيم. .

عجبت لنفسها حين خطرت لها كل هذه الخواطر!! سألت نفسها : هل سأترك أخي وأمي وأبي ؟!. . هل سأترك بيتي ومدرستي. . ؟!. . أجابت : يجب أن أعمل لأصبح حُرة. . يجب أن أكسب المال. . . ولم تدر ساموا أن عمرها لا يزيد إلا قليلاً عن عشر سنين . فتح باب الغرفة. . واقتربت منها الممرضة وهي

محتقنة الوجه ، سألتها : أصحيح أنك تريدين أن تعملي هنا ؟!..
ابتسمت ساموراً وقالت : نعم.. نعم... أريد أن أغدو حُرة..
دمعت عينا الممرضة وقالت : لكنك صغيرة يا ساموراً...
أنصحك أن تبقي مع أبيك وأمك.. وأن تستمتعي بحياة الطفولة... إنها أحلى فترات العمر... ولماذا تستعجلين الشقاء يا ساموراً... ؟!.. فوجئت ساموراً بقولها ، وعجبت لكن الممرضة لم تأبه لدهشتها ، تابعت تقول لها : إن لم يدفع والدك لك تكاليف العلاج.. فأنا أدفعها لك يا ساموراً.. أنا أدفعها لك.. أحذرك من العمل... إنهم الآن يخططون لسهراتك...
سمعتهم بأذني يتندرون... فهل تسمعين... أنا أعطف عليك يا ساموراً... عودي إلى بيتك يا ساموراً... مهما كان عذابك في بيتك شديداً ، فعذابك خارجه أشدّ بكثير... لم تستطع الممرضة أن تستمر... بكت بحرقة... أسرعت إليها ساموراً ومسحت لها دموعها وقالت لها : أرجوك هل أساء إليك أحد.. ؟.. أنا أعتذر إن أسأت إليك يا حبيبتي... مسحت الممرضة دموعها وقالت : أنت حرة يا ساموراً.. افعلي ما تريدين.. لكنني أحببت أن أنصحك... قبلتها من وجنتها... وغادرت الغرفة مسرعة .

لم تفهم ساموراً من كلام الممرضة شيئاً... سألت نفسها : كيف يخططون لسهراتي... ولماذا أعود إلى بيتي... وأنا هنا سأكسب المال وأصبح حرة.. ؟.. لكن إخلاص الممرضة كان

اضحاً. . . تريد أن تدفع لها أجور العلاج من جيبها. . . وتريدها
ن تعود إلى بيتها. . . لكن ساموا كانت شهمة. . . ما كانت تريد
ن يدفع لها أحد فرنكاً. . . قالت : على كل حال. . . سأعمل هنا
لاثة أشهر. . . وسأرى ماذا سيحدث. . . فإن وجدت العمل
ناسباً بقيت. . . وإلا تركته لأذهب إلى البيت . بيت أبي
أمي. . ؟. . دخل الطبيب ومعه الممرضة ابتسمت ساموا
لممرضة ، لكن الممرضة لم تلتفت إليها. . . ومن خلف الطبيب
بتسمت لها وأشارت إليها أن تخفي صداقتها معها. . . عجبت
ساموا لذلك. . . لكنها نفذت ما تريد منها الممرضة .

قص الطبيب أربطة رأسها. . . رأى جرحها قد التأم. . . قال
ها : أهنئك يا ساموا. . . لقد شفيت. . . بعد يومين ستغادرين
سريرك. . . فما رأيك ؟! أجابته : كما تريد يا سيدي. . . سألها :
كنني لا أرى أمك. . . ولا أباك ؟! صمتت. . . فتابع وهو يجمع
دواته : حسناً. . . لا بأس. . . كثير من الآباء مشغولون. . .
كذلك الأمهات يا ساموا. . . بأمور كثيرة. . . العمل. . .
كسب المال. . . والبحث عن المتعة واللذة. . . والسهرات. . .
ظر إليها مندهشاً حين قالت : قد أعمل معكم ثلاثة أشهر يا
سيدي. . . خشي الطبيب أن تكون لا أب لها ولا أم. . . فاحمر
جهه. . . وهمس وهو يغادر الغرفة : سنسعد معك يا ساموا. . .

وداعاً... وخرجت الممرضة معه... كانت حزينة... لم تقبل ساموراً عرضها...

كانت ساموراً فرحة... إنها ستبدأ حياة العمل... ستدخل بوابة الحياة... ستصبح حرة... ستملك الأموال... ستتصرف كسيدة رغم أن عمرها لا يزيد عن ثلاثة عشر عاماً.

* * *

العاملة النَّشيطة

العمل في المشفى يبدأ مبكراً ، يبدأ في الساعة الخامسة. . . استيقظت سامورا قبل الخامسة بساعة. . . إنها تحب العمل. . . رأت زميلتها سوندا لاتزال نائمة. . . إنها شابة عمرها عشرون عاماً. . . قالت سامورا : أنا سعيدة. . . سأستعين بسوندا. . . وأكسب منها الخبرة اللازمة .

أسرعت إلى ملابس العمل التي أعطوها إياها فلبستها. . . وجلست تنتظر ، سرحت شعرها. . . وغسلت وجهها. . . ورأت نفسها في المرآة جميلة حقاً. . . قالت : سيساعدني جمالي لأشق طريقي في أعمال ناجحة. . .

طرق الباب. . . ودخل شاب وسيم. . . إنه رئيس المشاغل. . . أندريه. . . اقترب منها وقال : أهلاً سامورا. . . هل أنت مستعدة للعمل ؟. . . أجابته : طبعاً. . . جلس إلى جانبها. . . كان يتفرس فيها بشكل عجيب. . . تمتم : لا شك أنك ستتعبين. . . لأن العمل هنا شاق. . . لكن قد أجد لك عملاً

مناسباً. . . أجابته : شكراً لك يا سيدي. . . كان يشرد وهو يتأمل عينيها. . . وخصلات شعرها. . . شعرت سامورا بالفرحة. . . هاهو جمالها يخدمها منذ اليوم الأول . اقترب منها أكثر وأكثر. . . همس لها : أين ستسهرين الليلة يا سامورا. . . ؟!. . . عجبت من سؤاله. . . إنها لم تسهر ولم تعرف السهر!! لم تجبه. . . امتلأ وجهه بابتسامة ماكرة وقال : إن شئت أن تسهري معي. . . فسوف أكون مسروراً جداً. . . أجابت سامورا : حسناً. . . سأسهر معك. . . صافحها بحرارة. . . وغادر الغرفة بينما كانت سوندا تتحرك في فراشها. . . رنت الساعة معنلة تمام الرابعة والنصف ، فقفزت سوندا من سريرها. . . رأت سامورا. . . فصاحت بها : صباح الخير يا سامورا. . . أراك قد سبقتني. . . يبدو أنك نشيطة. . . أؤكد لك أن نشاطك هذا لن يستمر أكثر من شهر. . . خصوصاً إذا كانت سهراتك كثيرة. . . لم تجبها سامورا إلا بعد لحظات قالت لها : أرجو أن أبقى نشيطة دائماً. . . قهقهت سوندا وهي تغسل وجهها. . . وقالت : أرجو ذلك. . . أرجو ذلك. . .

كانت سوندا تتأمل سامورا وهما تتناولان الطعام. . . كانت مندهشة لجمالها. . . قالت لها : كم عمرك يا سامورا. . . ولم تنتظرها حتى تجيب بل تابعت. . . خمسة عشر عاماً. . . أليس كذلك. . . لكن سامورا أجابت : بل أقل من ذلك بسنتين ، وضحكت كأنها قد انتصرت. . . تلون وجه سوندا بالشحوب. . .

وسألتها : ولماذا تعملين يا ساموروا منذ هذه السن ، أين أبوك . . . أيـن أمـك . . ؟ . . . شحـب وجـه سـامـورا . . . وامتعضـت . . . فسارعت سوندا وقالت : عفواً يا ساموروا . . . ما قصدت أن أسيء إليك . . . قد تندهشين إذا قلت لك إنني لا أعرف لي أماً ولا أباً . . . فأنا لقيطة . . . كمعظم العاملات في هذا المشفى . . . لكنهم قالوا لي إن لك أباً وأماً . . . أليس كذلك ؟! ابتسمت ساموروا ابتسامة صفراء وتمتمت : نعم . . . نعم . . . فسارعت سوندا إليها وضمتها وقبلتها وقالت لها : أهنئك يا ساموروا . . . فأنت أحسن حظاً منا جميعاً . . . لم تدر ساموروا بماذا تجيبها . . . لكنها قالت في نفسها : أبي وأمي موجودان ، إنني لا أدري ماذا ينفعني وجودهما . . . لقد تركاني وذهب كل منهما مع عشيقه . . . سمعت سوندا تقول لها : لاشك أنك أسعد منا . . . يا ليت لي أباً . . . وأماً وأخاً . . . قد يسـيئون إليَّ . . . لكن هذا بسيط مقابل أن لا أعرف لي أماً . . . ولا أباً . . . ولا أخاً . . . ولا أختاً . . . نظرت إليها ساموروا بحزن عميق وهمست : وهل نحن مجبرون على العيش إما بلا آباء . . . أو بآباء ظالمين . . . قالت سوندا : يا ليتهم يعطونني أباً وأماً وأخاً . . . ثم يذبحونني . . . رنت الساعة معلنة تمام الخامسة . . . فأسرعتا إلى الباب . . . ووقفتا أمامه .

حضر جابون مدير قسم الكي ، وقال : أهلاً ساموروا . . . أهلاً سوندا . . . من سوء حظ ساموروا اليوم أن المصعد معطل . . .

ستتعب كثيراً بنقل الغسيل من المناشر إلى غرف الكي. . . لكن ما العمل!. . . هذا حظها ؟!. . قالت سوندا : هل أعاونها يا سيدي. . . أجاب : لابأس. . . لابأس. . . لكن بعد أن تكملي عملك في تهيئة المغاسل وأدوات الأطباء. . . وتلمعي سائر الأحذية. . . هيا إلى العمل يا سوندا. . . وتعالي معي أنت يا ساموار لأدلك على مكان المناشر. .

أسرعا معاً. . . سارا ربع ساعة. . . كان رجلاً جاداً. . . فلما وصلا إلى المناشر قال : انظري يا ساموار . هذا الغسيل قد جفّ. . . يجب نقله إلى غرف الكي. . . في الطابق السابع. . . نظرت فرأت ألوف القطع ذات الألوان المختلفة منشورة. . . قالت في نفسها : هل سأنقل هذا كله إلى الطابق السابع ؟!. . همس : هيا يا ساموار. . . بعد ساعة تبدأ الكاويات بالعمل. . . إياك أن تؤخريهن. . . إن تأخرت تأخرن. . . وإن تأخرن تأخر المشفى كله عن العمل. . . على كل حال سأتفقدك كل نصف ساعة. . . أمسك بيدها وقال : تعالي معي. . . عجبت له. . . لم يترك يدها. . . بل راح ينظر إلى وجهها بدهشة. . . كأنه يراها لأول مرة. . . قال لها : لاتزال يدك غضة يا ساموار. . . أنت دافئة. . . سحبت يدها منه بلطف وقد احمر وجهها. . . سألته بجد : كيف سأبدأ العمل ؟! أجابها : تطوين قطع الثياب بسرعة. . . وتضعينها في هذه الصناديق. . . وتنقلينها في هذه العربات. . . إلى أول ذلك

الدرج... ثم تحملينها وتصعدين إلى الطابق السَّابع، وهناك يستقبلك الكواؤون والكواءات ليأخذوها منك... هيا إلى العمل... ابتعد وهو يقول لها: أسرعي يا ساموراً الوقت ضيق... والعمل كثير... على كل حال... سآتي إليك بعد نصف ساعة...

قفزت ساموراً إلى قطع الثياب وراحت تطويها بسرعة وترتبها في الصناديق... فكرت... وقالت لنفسها: إن طويت جميع الغسيل فقد يتأخر الكواؤون... ويتعطل المشفى كله عن العمل... سأطوي بعض الصناديق... وأوصلها إلى الكوائين ليعملوا... ثم أعود إلى الطي... ملأت ستة صناديق وأسرعت فحملت واحداً منها إلى الطابق السابع... فوصلت وهي تلهث... لكنها لم تبال... دخلت غرفة الكوائين فلم تجد أحداً... فرحت... وضعت الصندوق عند إحدى طاولات الكي... وأسرعت هابطة إلى المناشر... ومازالت تنقل صندوقاً بعد صندوق حتى نقلت عشرين صندوقاً في ساعة واحدة..

كان العرق يتصبب من وجهها... الذي أصبح كأنه قطعة من أرجوان لكنها كانت تريد أن تثبت لهم أنها عاملة ممتازة... حملت صندوقاً جديداً بعد أن ملأته بالثياب المغسولة... وراحت تركض به خارج المناشر مقتربة من الدرج: سمعت مدير قسم الكي جابون يصيح خلفها: أحسنت يا ساموراً... أحسنت...

أنت عاملة نشيطة. . . هيا أوصلي الصندوق وارجعي سأنتظرك في المناشر. .

امتلأت نفس ساموراً بالزهو. . . لقد أثبتت منذ اليوم الأول أنها عاملة نشيطة. . . نسيت تعبها. . . وزادت من ركضها. . . عادت إلى المناشر. . . وجدت هناك مديرها جابون يقف أمام صناديق الملابس ، يعمل في طي الغسيل المنشور ، فلما اقتربت منه نظر إليها بدهشة. . . زاد العمل من جمالها ، وجهها كالبدر. . . وخصلات شعرها المشعثة السوداء تأخذ بالألباب. . . وتنفسها العميق بعد التعب الشديد يبرز صدرها أكثر وأكثر. . . وقفت أمامه برهة. . . ثم هربت منه إلى عملها. . . سألها وهو يتأملها ، أين ستسهرين الليلة يا ساموراً. . ؟!. . أجابته : دعاني مدير التشغيل إلى السهر معه. . . اقترب منها وهمس : إياك أن تستسلمي له . إنه ماكر خبيث. . . لم تفهم ساموراً شيئاً. . . سألها : وغداً. . . هل ستسهرين معي يا ساموراً ؟!. . عندي شريط لأغنية جديدة رائعة. . . سنرقص على أمتع الألحان. . . ماذا تحبين من الشراب يا ساموراً لأحضر لك ؟!. . لم تجبه بحرف. . . تابع : أعرف أنك صغيرة. . . وغير مجربة. . . لكنني لست ذئباً. . . لم تجبه. . . لأنها لم تفهم كلمة من كلامه. . . كل الذي فهمته أنه يدعوها إلى سماع أغنية جديدة. . . ويريدها أن ترقص عنده على أنغامها. . . وهي تحب الرقص. . . وتحب الأغاني. . . قال لها : سأحضر لك

شراباً رائعاً... خمراً معتقاً منذ عشرين سنة... ما رأيك يا سامورا ؟!! . سال لعابها... إنها تسمع عن الخمر المعتق لكنها لم تتذوقه في حياتها الطويلة مرة واحدة... إنها تشرب الرديء من الخمر الذي كان أبوها يحضره إلى البيت... إنها دعوة رائعة... ستشرب الخمر المعتق كما يشربه الملوك وأصحاب الملايين... ابتسمت ، وقالت بدلال : سنسهر غداً في شقتك... عجبت له حين أسرع إليها يصافحها بحرارة... كان يحاول أن يضمها... لكنها هربت منه... حملت صندوقاً من صناديق الغسيل وأسرعت إلى الدرج مهرولة بينما كان جابون يتابع خطواتها مسروراً ، ونفسه تثور بألف ذئب وألف ثور وتيس... كان شيطانه يقول له : إنها تستحق عشرين زجاجة من خمر معتق... لكن كيف العمل حتى لا يصل إليها مدير التشغيل أندريه ؟!... قال في نفسه : إذا أنا أتعبتها بالعمل اليوم فسوف لا تستطيع السهر... لذلك قد تعتذر... أما غداً فلن أدعها تعمل أي عمل... حتى تكون مستريحة... وهكذا تسهر معي حتى الصباح... خرج من المناشر وهو يغني : ما أحلى السهر... ما أحلى السهر... ما... ما... ما... ما أحلى السهر... ؟!...

* * *

اذكري كلامي جيداً

كاد التعب يقتل سامورا حينما رنت الساعة معلنة الثانية عشرة... همست : عملت حتى الآن سبع ساعات... لكن جسمها كان محطماً... لقد صعدت إلى الطابق السابع سبعين مرة ثم نزلت... وقف العمل كله... وذهب العمال إلى المطعم ليتناولوا طعام الغداء... ويستريحوا بعدها في غرفهم نصف ساعة..

دخلت المطعم... فالتفت إليها العمال والعاملات كلهم... سمعت سوندا تناديها : سامورا... تعالي إلى هنا... أسرعت سامورا إليها... وراحت تتناول طعامها كالبرق... إنها متعبة... وتريد أن تستريح شعرت بوطأة العمل المرهق منذ اليوم الأول... أكلت نصف طعامها... وقامت مسرعة إلى غرفتها... شدتها سوندا إلى كرسيها وقالت : كلي طعامك يا سامورا... إن عملك متعب... إنك بحاجة إلى الطعام حتى لا تمرضي... نظرت إليها بامتنان... لكنها تركتها وقامت متثاقلة

تريد أن تذهب إلى غرفتها ، فالتعب قد هدها هداً. . . تناولت سوندا طعامها بسرعة. . . وقامت لتلحق بساموراً. . . وجدتها مطروحة كالميتة على سريرها. . . إنها تئن من التعب. . . اقتربت منها وقالت : يبدو أنك قد تعبت كثيراً يا ساموراً. . . لكن هذا اليوم يوم شاذ. . . فالمصعد معطل. . . ولو كان غير معطل لكان العمل مريحاً. . . جلست على سريرها وراحت تتأمل وجهها الجميل. . . ثم أسرعت إلى خزانتها وأخرجت منها حبة ، وملأت كوباً بالماء واقتربت من ساموراً وقالت : خذي هذه الحبة المنشطة. . . قد يخف تعبك يا ساموراً. . . ابتلعت ساموراً الحبة مع قليل من الماء وهمست : شكراً لك يا سوندا. . . أنت صديقة رائعة. . . سأرد لك الجميل يوماً. . . قاطعتها سوندا : سينتهي العمل في السابعة مساء. . . في السابعة والنصف يجب أن ننتهي من تناول طعام العشاء ، وفي الثامنة يجب أن تنامي. . . أجابت ساموراً : لكن مسيو أندريه قد دعاني للسهر معه الليلة. . . سألت سوندا باستغراب عظيم : مدير التشغيل ؟!. . . يا ويلهم. . . ومنذ اليوم الأول يا ساموراً يريدون أن تسهري معهم. . . جلست ساموراً وقد هيجها استغراب سوندا فسألتها : وما المانع يا سوندا ؟! . إنهم يريدون أن يخففوا عني. . . وفي الليلة التي بعدها سأسهر مع جابون مدير قسم الكي. . . صفرت سوندا صفيراً طويلاً وقالت : عليهما اللعنة. . . احذري يا ساموراً. . . هؤلاء الرجال

أنانيون... لا يريدون إلا متعتهم... إياك أن تستسلمي لهم...
أحذرك يا ساموراً...

كانت ساموراً تفكر في حديث سوندا... حين رنت الساعة معلنة الواحدة تماماً... فقد بدأ العمل من جديد... دخل جابون إلى غرفة ساموراً فوجدها ممددة على سريرها... فابتسم وقال : بدأ العمل يا ساموراً ، صاحت سوندا : علمت أن المصعد قد عاد يعمل فالتفت إليها جابون وأجاب : هذا عظيم لو كان صحيحاً يا سوندا... لكنه عاد فتعطل... عليه اللعنة ما أسوأه... تنهدت ساموراً بعمق... كأنها تحمل فوق صدرها جبلاً من الهم... أسرعت خارجة وأسرع معها جابون يلاطفها... تابعتهما سوندا بقلق ثم صاحت : ساموراً... سنلتقي في السابعة في المطعم... أليس كذلك... ؟!... أجابتها ساموراً : طبعاً... طبعاً يا سوندا... لكن جابون همس لها : ألن تسهري الليلة مع مسيو أندريه يا ساموراً... أجابت : نعم... نعم... سيكون ذلك بعد العشاء يا سيدي... أمسك بيدها بلهفة وقال : أرجو أن تتناولي العشاء معي غداً قبل السهرة... هل يسرك ذلك يا ساموراً... سأحضر لك طعاماً رائعاً... سحبت يدها منه بلطف وهمست لابأس إن كنت ترى ذلك...

وصلا إلى المنشر... فضحك جابون وقال : لقد انتهى العمل في النشر يا ساموراً... ستوزعين الصناديق التي كواها الكواؤون

من الطابق السابع على أقسام المشفى... وتستلمين الثياب الوسخة وتوصلينها إلى قسم الغسيل... هيا... إن شعرت بالتعب فسوف أرسل لك من يساعدك... تركها... وذهب...

كان يقول في نفسه : لقد عطلت المصعد بعد أن أصلحوه... لتهلك سامورا من التعب... لا أريدها أن تسهر مع مسيو أندريه الليلة... يجب أن لا يسبقني إليها أحد... بينما كانت سامورا تصعد الدرجات بخفة لتنجز عملها المطلوب..

فوجئت حين رأت سوندا خارجة من المشفى... عجبت لها... وتساءلت : إلى أين هي ذاهبة... أحست بالقلق... إنها الوحيدة التي تعطف عليها... أما الآخرون فينظرون إليها نظرات شرهة عجيبة... وبعضهن ينظرن إليها بحقد... لم تعرف لماذا... كانت تحمل صناديق الملابس المكوية بسرعة... كانت العاملات يبتسمن ويقلن : هذه المسكينة ستندم على ما تبذله من جهد... أما هي فكانت قلقة لغياب سوندا... كانت كلماتها الحلوة تطربها إنها تواسيها حين تتعب... قالت مع من سأتناول طعامي اليوم في هذا المكان الغريب... ومن سيخفف عني من تعبي في الساعة السابعة والنصف... قلقت ، وحزنت... لكنها طارت من الفرح حين رأت في الساعة السابعة سوندا تدخل المطعم... أسرعت إليها وسلمت عليها بحرارة... فرحت بها سوندا واقتربت من أذنها وقالت لها : أتيتك بهدية رائعة يا

ساموراً... ستفرحين بها لاشك... عجبت ساموراً... وزاد فرحها... إنها لم تعرف مثل هذا العطف من أمها ولا أبيها...

ارتجفت من الانفعال حين ذكرت أمها وأباها... لكنها قالت لنفسها : وداعاً يا أبي... وداعاً يا أمي... قد لا ألقاكما أبداً... لكنها عجبت لهذا الخاطر الذي خطر لها... لم تفق من خيالاتها إلا حين سمعت ضحكة سوندا ، انتبهت فسمعتها تقول لها : لماذا لا تجلسين يا ساموراً... نظرت حولها فرأت جميع الرجال والنساء ينظرون إليها... فاحمر وجهها خجلاً ، وجلست قرب سوندا مسرعة... تناولت طعامها ببطء... عرفت أن نصيحة سوندا لها كانت غالية... فقد شعرت بالجوع الشديد طوال الساعات السبع الماضية لأنها لم تأكل طعاماً كافياً... التهمت جميع ما أعطوها من طعام... ابتسمت سوندا وفرحت بساموراً الذكية ثم قامت معها إلى غرفتهما المشتركة .

تمددت ساموراً على سريرها بينما أسرعت سوندا إلى خزانتها ، أخرجت منها علبة رائعة الألوان... اقتربت من ساموراً وقالت لها : هذه هديتي لك يا ساموراً...

كادت سوندا تصعق من الدهشة حين قالت ساموراً : أهي لعبة يا سوندا... كم أتمنى أن تكون لي عروس ألهو بها...

إنهمرت الدموع من عيني سوندا وهمست لنفسها : ألا لعنة الله على هذا المجتمع الذي أجبرك على هذا العمل منذ طفولتك...

كان يجب أن تلعبي في بيتك... لا أن تكوني عاملة في أكثر الأعمال تعباً .

عجبت ساموراً لها : أسرعت إليها وقالت : هل أحزنتك يا حبيبتي... لم أقصد ذلك يا سوندا... سامحيني يا سوندا... ابتسمت سوندا وقالت : عفواً يا ساموراً... تذكرت أنني لقيطة . فتمنيت أن يكون لي أب وأم وأخوات... فبكيت...

التفتت ساموراً... ونظرت إلى النافذة... وهمست : وما فائدة الآباء والأمهات إن كانوا لا يسألون عن أبنائهم وبناتهم... ولا يدفعون لهم تكاليف العلاج ؟! .

اقتربت منها سوندا وهمست والدموع تنحدر من عينيها : لا تحزني يا ساموراً... كفاك التعب وحده... إننا كلنا مظلومات في هذا المجتمع الملعون...

التفتت إليها ساموراً وراحت تمسح دموع عينيها ودموع سوندا... ضمتها سوندا إلى صدرها وهي تقول لها :

حبيبتي ساموراً... إياك أن يخدعك الرجال... إنهم لصوص وشياطين وذئاب... وأنت صغيرة... وحلوة... تعالي لأعطيك هديتي... تعالي... تعالي يا حبيبتي...

تناولت سوندا العلبة التي أخرجتها من خزانتها... واقتربت بها من ساموراً التي كانت تفكر : يخدعني الرجال ؟! هم لصوص

وشياطين وذئاب!! لا أفهم معنى هذا الكلام... بقيت سوندا أمامها لحظات دون أن تنتبه إليها سامورا... كادت سوندا تبكي من جديد، ظنت أن سامورا لا تريد هديتها... كادت تتهاوى على الأرض... لكن سامورا انتبهت فجأة... وتناولت العلبة منها وهي تعتذر... فرحت سوندا... وفكت سامورا شرائط العلبة... وفتحتها... وجدت فيها بنطالاً رائعاً... طارت من الفرح وهي تقلبه وتنظر إليه... قالت لها سوندا: أتيتك بهذا البنطال... لتلبسيه في سهرتك اليوم مع مسيو أندريه... ولتلبسيه غداً في سهرتك مع مسيو جابون...

هجمت سامورا على سوندا تقبلها... لكنها لاحظت أن سوندا ترتجف من الانفعال... قالت سوندا وهي تكاد تختنق: انتبهي إليَّ جيداً يا سامورا... فتراجعت سامورا وانتبهت... رأت سوندا تتكلم كأنها راهب عتيق، قالت لها: سامورا: إياك أن تخلعي هذا البنطال أثناء السهرة... عجبت سامورا وسألت: ولماذا أخلعه يا سوندا... بكت سوندا ورددت مرة ثانية: اذكري كلامي جيداً... إياك أن تخلعي بنطالك يا ساموا... إن خلعته ذهبت في طريق العذاب الذي ليس له آخر... إياك ثم إياك... إن خلعته يا ساموا سوف يزيد اللقطاء من أمثالي واحداً... هل تريدين أن تزيدي عدد الأشقياء... ؟!.

بكت ساموا، وألقت بنفسها على سريرها... وهي تصرخ:

لا أريد... لا أريد... لا أريد...

اقتربت منها سوندا وهمست : لقد أوجعتك يا حبيبتي... لكنني أقول لك من جديد : لا أريد إلا سعادتك يا سامورا... لا أريد إلا سعادتك يا سامورا... والآن... أرجوك أن تسامحيني... فقد تدخلت في حياتك الخاصة...

قفزت سامورا من سريرها... وضمت سوندا إلى صدرها وقالت لها : أنت عظيمة يا سوندا... سأنفذ كل كلمة تقولينها لي... رغم أنني لا أفهم ما تقولين...

لبست سوندا ثيابها وقالت : سأخرج لألقى خطيبي... وسأترك لك الغرفة حتى إذا جاء مسيو أندريه وجدك وحدك... هيا البسي ثيابك... والبسي بنطالك أولاً... وقبل أن أذهب...

غسلت سامورا وجهها... ويديها ورجليها... ولبست ثيابها... ولبست بنطالها... عندها ودعتها سوندا وذهبت إلى خطيبها الذي ينتظرها... قالت لها وهي تخرج : يجب أن لا تطول سهرتك يا سامورا... سألقاك هنا في العاشرة... فما رأيك... أجابتها : سأكون هنا في العاشرة حتماً... أنا متعبة... يجب أن أنام... حتى أستيقظ صباح الغد يا سوندا... العمل هنا شاق جداً...

* * *

ليت كذبتك كانت صادقة

أسرعت ساموا إلى الهاتف حين رن... إنه مسيو أندريه ينتظرها في سيارته خارج المشفى... أسرعت... وركبت إلى جانبه... وانطلقا بسيارته الرائعة...

نسيت ساموا كل همومها وأتعابها... حين راح مسيو أندريه يتجول بها في حدائق باريس الرائعة... وأخيراً وصلا إلى قصره الجميل...

كان يسألها طوال الطريق عن عملها... وكيف وجدته... ويسألها أسئلة مختلفة... بعضها فهمته... وبعضها لم تستطع فهمه...

سألها مثلاً : كم لك من الأصدقاء يا ساموا... فأجابته : لا أعرف إلا توتمان وصديقه الشقي اللذين شجا لي رأسي . لا أعرف غيرهما . ابتسم مسيو أندريه بخبث ، وبدت على وجهه الفرحة . سألها : وماذا تحبين من الخمور يا ساموا ؟!.. أجابت لم أشرب طوال حياتي إلا البيرة ، وأنواعاً رديئة من الخمور ما أحببتها!..

ضحك مسيو أندريه وقال : ستشربين الليلة ألذ أنواع الخمور يا سامورا ، فرحت وقالت : شكراً لك يا مسيو أندريه على هذا الكرم . أنا سعيدة بالسهر معك يا سيدي .

وأخيراً دخلت السيارة حديقة (فيللا) مسيو أندريه . عجبت حين أسرع وفتح لها باب السيارة ، ومدَّ لها يده ليساعدها كي تنزل . . . لكنها لم تدر لماذا تصورت كأن يده الممتدة هي يد ذئب . نزلت دون أن تمسك يده .

شعرت بالخوف حين دخلت قصره . رأت خدامه يبتسمون بخبث . ويتفرسون فيها كالوحوش . سمعته يوشوش لهم وشوشات غامضة . تمنت لو كانت سوندا معها . لكنها كادت تنسى كل شيء حين بدأت الموسيقى الراقصة تصدح . . . وحين كان الخدم يدورون حولها يطلبون رضاها . أطفئت الأنوار الصاخبة ، وأضيئت الأضواء الخافتة الملونة ، تمنت لو رقصت على هذه الأنغام . . . وفي هذا الجو السحري الممتع .

التفتت دون قصد فرأت غرفة النوم مفتوحة . ورأت داخلها الفرش الرائعة ، واللوحات الثمينة . وباقات الزهور التي تنضح بالعطور . تمنت لو نامت هناك . . . أدارت وجهها وقد شعرت بالتعب كله .

اقترب منها مسيو أندريه ، قال لها : ما رأيك في كأس من الخمر العتيق يا سامورا ؟! ابتسمت ووافقت ، فحمل زجاجة ،

وصب لها حتى تشرب ، فشربت كأساً ، وكأسين ، شعرت بالنشوة ، وتمنت أن ترقص. . . فلما مد لها يده يدعوها للرقص وقفت معه والطرب يهزها من أعماقها ، أخذ عنها معطفها ، نظر إليه ، ثم قبله عشر قبلات. . . كان ثملاً . فرحت بذلك . إنه يكرمها بعمله اللطيف هذا . وأخيراً أمسك بيدها وتوجها إلى باحة الرقص رأت غرفة النوم بكل تفاصيلها . فتمنت لو تنام .

نظر إليها مسيو أندريه من أولها إلى آخرها وهمس : حبيبتي ساموراً. . . هل تشعرين بالبرد. . . هل آمرهم كي يوقدوا الشوفاج ؟!. . . إنني لا أشعر بالبرد . أجابته : وأنا لا أشعر بالبرد أيضاً . سألها : ولماذا هذا البنطال إذاً ؟!!. .

يبست ساموراً كقطعة خشب ، وصار وجهها مثل الشمع . ذكرت وصية سوندا لها ، وشعرت بتعب الدنيا كله يحل بجسمها . صاحت : أشعر بالتعب ، أكاد أموت. . . أرجوك خذني إلى غرفتي في المشفى. . . أريد أن أنام . قال لها : أهلاً بك. . . تنامين عندنا الليلة. . . تعالي أنظري إلى غرفة نومي الفاخرة. . . قالت برجاء : أرجوك. . . رأسي يكاد يتحطم من الألم. . . إنني مرهقة. . . أجابها : كما تحبين يا ساموراً. . . هيا اخلعي ملابسك ونامي هنا. . . تيبست مرة ثانية. . . وأصبحت شاحبة كالموتى. . . لكنها تحولت إلى لبوة كاسرة. . . قالت بحزم : أريد أن أذهب إلى المشفى فوراً. . . وإلا قتلت نفسي. . . سألها مسيو

أندريه : كما تحبين يا سامورا... لا أريد أن أزعجك... لكننا لم نسهر الليلة... لم نرقص... ولم نشرب... ولم نلعب... ولم... ولم... ولم... هل تعدينني أن تسهري عندي غداً ؟ ؟ .

أجابته : لقد وعدت المسيو جوبان أن أسهر معه غداً... انتفض مسيو أندريه وقال متصنعاً الهدوء : أنا سأعتذر لك منه... قاطعته : لكنني أظن أنني لن أستطيع السهر طوال عمري إذا كان عملي المتعب سيستمر...

وقف بكل حزم وقال : إذاً... لن تخرجي من هنا قبل أن نكمل سهرتنا... أو تعطيني وعداً أن تسهري عندي غداً... شعرت سامورا بالخوف... تمنت لو كانت معها سوندا... قالت له : سأسهر معك غداً... بشرط أن تعتذر لي من مسيو جوبان... ضحك مسيو أندريه وقال : لك ما تريدين... واقترب منها بسرعة يريد أن يضمها ويقبلها... فابتعدت عنه فزعة... وفجأة رن جرس البيت...

توقف المسيو أندريه قليلاً كأنه يتساءل من القادم ، بينما كانت سامورا تنظر إليه برعب... أسرع أحد الخدم وقال : سيدي مسيو أندريه : سوندا مع خطيبها يطلبان مقابلتك...

فرحت سامورا... وأشار المسيو أندريه أن يدخلهما... لبس

ثيابه... وذهب لاستقبالهما، بينما كانت ساموراً تسرع إلى معطفها وقبعتها...

دخلا... نظرت سوندا بلهفة باحثة عن ساموراً... فلما رأتها... أمعنت النظر فيها حتى تأكدت أنها لاتزال تلبس بنطالها... همست: سيدي مسيو أندريه./. والدة ساموراً تنتظرها في المشفى... قاطعها مسيو أندريه: لو أتيتما بها إلى هنا لتسهر معنا... أجابت سوندا: كنا نتمنى ذلك يا سيدي... وقال خطيب سوندا: قالت إنها لا تستطيع ذلك... وأخبرتنا أننا إن تأخرنا فسوف تذهب... أسرعت ساموراً وقالت: لا... لا... يجب أن أراها... وغداً نسهر معاً... ابتسم مسيو أندريه بحسرة... وقال: حسناً كما تريدون... هل أوصلكم إلى المشفى؟!... أجابته سوندا: لا نريد أن نزعجك... فخطيبي لديه سيارة صغيرة...

ركبوا... فأسرعت السيارة نحو المشفى... بينما كانت سوندا تقترب من ساموراً وتسألها: هل أصابك مكروه يا ساموراً؟!... أجابتها... لا... لا... لكنني أشعر بتعب شديد... قاطعتها: لقد خفت عليك... فاخترعت قصة أمك... فأمك لم تأت لتسأل عنك... لكنني حرصت على إخراجك من السهرة بهذه الحجة... فهل أزعجتك يا ساموراً؟!... أجابتها ساموراً: لقد شعرت بالخوف الشديد...

رغم ما رأيته من ترف في قصر مسيو أندريه... لقد دعاني إلى النوم عنده في غرفة نومه... ولا أدري لماذا رأيت فيه ذئباً مفترساً... ذكرت أقوالك لي يا سوندا... وتمنيت لو كنت معي...

وصلوا إلى غرفتهما في المشفى... وودعهما خطيب سوندا... وألقت سامورا بنفسها على سريرها... بكت وقالت : يا ليت كذبتك كانت صادقة... يا ليت أمي تزورني وتنقذني من هذا الجحيم... ثم استسلمت لنوم عميق... غطتها سوندا... وأطفأت النور... وأوت إلى فراشها لتستريح... خنقها البكاء... لكنها نامت رغماً عنها من عناء يوم شديد .

* * *

في جناح الأطفال

امتلأت ساموررا بالفرح ذلك الصباح... فالمصعد يعمل... ومسيو جوبان قد عين لها زميلة تعينها في عملها... نقلت جميع الغسيل بالمصعد... انتهت منه وهي لا تشعر بأي تعب... لكن جميع عاملات المشفى عجبن لبنطال ساموررا الجميل... سألنها : ألا يضايقك هذا البنطال يا ساموررا ؟! كانت تبتسم وتقول : بل أنا في غاية السعادة مع هذا البنطال الجميل...

قال بعضهن : يبدو أن ساقي ساموررا فيهما مرض... وهي تحاول إخفاءه بلبس هذا البنطال . لكن من رأينها البارحة أكدن أن ذلك ليس صحيحاً على الإطلاق... أما ساموررا فقد شعرت بالراحة لهذا البنطال العجيب... كانت كلما حاولت أن تخلعه تشعر بالرعب الشديد... ولا تهدأ نفسها إلا إذا طردت فكرة خلعه من رأسها الصغير...

كانت مسرورة جداً حين دخلت المطعم لتتناول الغداء... فرحت بها سوندا... رن هاتف المطعم... وصرخ الخادم :

ساموراً... مسيو أندريه يريد الحديث إليك... أسرعت ونفسها تغلي بالخوف والألم معاً... شدت بنطالها... وأمسكت السماعة... سمعته يقول : أهلاً ساموراً سنسهر الليلة معاً... أليس كذلك ؟!... لقد أخبرت مسيو جوبان... واعتذرت له... أجابته : لقد سعدت البارحة بالسهر معك... لكنني متعبة يا سيدي... وأخشى أن أمرض إن لم أسترح بعد العمل فوراً... وعلى كل حال... الأيام بيننا... وأنا حريصة أن أسهر معك كل ليلة... ففي اليوم الذي أشعر فيه بالراحة سأتصل بك كي نسهر معاً... فما رأيك يا سيدي ؟! أجابها : حسناً... أنا موافق...

كان جوبان يسمع كل كلمة... فرح فرحاً شديداً... قال في نفسه : لن تصل إليها مادمت أنا جوبان في المشفى... إنها لي وحدي... ساموراً لي وحدي...

مضى النهار وعادت ساموراً إلى غرفتها... جلست مع سوندا نصف ساعة تتسامران ثم راحت في نوم عميق... ابتسمت سوندا... وغطتها... ولبست ثيابها... وغادرت المشفى لتلتقي بخطيبها... لكنها عادت بعد ساعة وهي تبكي... حاولت أن تكتم بكاءها حتى لا توقظ ساموراً... بقيت طوال الليل تبكي... وأخيراً نامت رغماً عنها من شدة التعب...

فلما أعلنت الساعة تمام الرابعة صباحاً... استيقظت

ساموراً... اقتربت من سرير سوندا فوجدت وجهها محتقناً بالدماء... والعرق يتفصد من جبينها... همست لنفسها : إنها مريضة... رفعت سماعة الهاتف وقالت : آلو... إسعاف... أرجوك تفضل... سوندا مريضة جداً... حملوها وهي تهذي... بكت عليها ساموراً... لم تستطع البقاء معها... حان وقت العمل... فرحت أن المصعد لايزال يعمل... لكن مسيو جابون أخبرها أنها قد عينت في قسم رعاية الأطفال... فرحت ساموراً... وذهبت مع مسيو جابون ليدلها على العمل الجديد... قال لها في الطريق : متى سنسهر معاً يا ساموراً ؟ ؟ فلم تجبه بكلمة... امتلأ وجهه بالغضب... وقال لها : أنا آسف لإزعاجك يا ساموراً... دخلا جناح الأطفال... وقال لها : هنا سيكون عملك الجديد استقبلها مدير التشغيل مسيو أندريه وقال لها : إن مهمتك هنا بسيطة يا ساموراً... عندك هنا مائة طفل... يحتاجون إلى خمس وجبات طعام... وثلاث مرات تنظيف... وعندك جميع ما تحتاجينه من أدوات... هذه الغسالة... وذاك الفرن... وهذا هو الحليب... وهنا خزانة زجاجات الحليب المعقّم... وتلك هي لفافات التغيير (الحفاضات)... وسوف تتناولين طعامك هنا إن شئت... على هذه الطاولة... دون أن نزعجك بالذهاب إلى المطعم... والآن وداعاً يا عزيزتي... أتمنى لك يوماً طيباً... أنا بانتظار أخبارك عن موعد سهرتنا

الجديد. . . أتمنى أن تكون في أقرب فرصة. . . ابتسمت ساموراً. . . وصافحته. . . ودخلت لتبدأ عملها الجديد. . .

* * *

أريد هناناً

بكى بعض الأطفال. . . فأسرعت إليهم. . . لا تريد أحداً أن يبكي. . . هيأت الطعام لهم وراحت تطعمهم حتى انتهت من إطعام الأطفال كلهم. . . ثم راحت تغسل الزجاجات وتهيىء لهم الوجبة التالية. . . ماكادت تفرغ من تحضير الوجبة التالية لمائة طفل حتى دقت الساعة معلنة الثامنة. . . لقد جاء وقت تنظيفهم. . . وراحت تركض باذلة كل طاقتها لتنظيفهم. . . مضت ثلاث ساعات أخرى. . . والتعب يكاد يشقيها. . . وما إن انتهت من تنظيفهم حتى أعلنت الساعة تمام الحادية عشرة. . . وابتدأت وجبة الطعام الثانية. . . في الواحدة انتهت. . . فأسرعت لتناول طعامها. . . وخلال نصف ساعة أكلت ثم جلست كي تستريح. . . لكن كيف تستريح ومائة الطفل يصرخون. . . يريدون أن ينظفوا. . . ابتدأت حملة التنظيف الثانية ثم وجبة الطعام الثالثة. . . ثم جلست لتستريح بين ضجيج الصراخ والعويل. . . بكت من التعب. . . ذكرت صديقتها سوندا. . . رفعت السماعة. . . طلبتها قالوا لها :

لقد نامت الآن... إنها مصابة بحمى شديدة... إنها تهذي... سمعوها تقول: ساموراً... احذري يا ساموراً... بكت ساموراً لما علمت بذلك... تمنت لو تذهب إلى سوندا لتزورها... لكن كيف... فالوجبة الرابعة بدأت... والتنظيف الأخير ينتظر... أطعمتهم ونظفتهم... ثم أطعمتهم الوجبة الخامسة... وهدأ كل شيء... تقريباً... الأطفال بدأوا ينامون... اتصلت برئيس قسم الأطفال، قالت له: أرجوك أريد زيارة سوندا... هل أستطيع ذلك... أجابها: كما تحبين يا ساموراً لقد انتهى عملك اليوم... أسرعت ساموراً والساعة قد جاوزت الثامنة... دخلت غرفة سوندا... اقتربت من سريرها... رأتها نائمة... جلست عند سريرها... اقتربت منها وقبلتها... فتحت سوندا عينيها... رأت ساموراً... صاحت بصوت واهن: حبيبتي ساموراً... كيف أنت ؟!... بكت ساموراً... وقالت: أنا قلقة عليك يا سوندا... ما هذا المرض المفاجىء... بكت سوندا... ثم مسحت دموعها وقالت: خطيبي تركني... صعقت ساموراً وسألتها: ولماذا يا سوندا ؟! أجابتها: منذ سنتين ونحن يُجرِّب بعضنا بعضاً... لقد أعجبني... فهو ذكي ولطيف... وقد حملت منه... فأنا الآن في الشهر الثالث... لكنه هددني... إما أن أسقط حملي... أو يتركني... إنه لا يريد طفلاً... رجوته خلال الشهر الأخير كثيراً أن يحافظ على الجنين... إنني

أحبه... إنه ولدي... أريد ولداً... لكنه أصر على رأيه...
وقال : إن تجربتنا لم تنته بعد... قلت في نفسي سأترك الأمر دون أن أفاتحه به... لعله يغير رأيه... سألني آخر مرة رأيته فيها... ماذا ستصنعين بالجنين ؟ فلم أجبه... فلما ذهبت لأراه البارحة لم أجده... ترك لي ورقة يقول فيها : سوندا... انتهت علاقتنا... إن تجربتنا قد فشلت... إنك رفضت أن تسمعي طلبي... وداعاً...

كادت سامورا تجن من الحزن... لكنها لم تُظهر ذلك خوفاً على سوندا ، همست سوندا : منذ سنتين وأنا معه... أخلصت له... أحببت أن يكون زوجي... وتمنيت أن يأتيني منه ولد أرعاه ويرعاه معي... لكنه لا يريد... يريد أن يستمتع بي دون مسؤولية... حتى يتخلص مني متى شاء وقد حدث ذلك وتخلص مني مثلما يتخلص من حذائه العتيق... ما أتعسنا نحن النساء وما أشقانا...

مسحت سامورا جبين سوندا وهي تقول : لازلت شابة يا سوندا... لا خوف عليك... سيتهافت عليك الرجال... إن ذهب واحد أتى عشرة...

لم تُجب سوندا بكلمة كان بكاؤها هو الجواب...

اقتربت الممرضة من سامورا وهمست : انتهى وقت الزيارات يا سامورا... أرجوك... ودعت سوندا... وراحت تجر قدميها

نحو مضجعها في غرفة مائة الطفل... دخلت غرفتها... أحست بالغربة في هذا العالم الملعون... كان صراخ الأطفال يصم أذنيها...

ألقت بنفسها فوق السرير... غطت رأسها... وراحت تبكي وتصيح من تحت الغطاء : أريد حناناً... أريد حناناً... أريد حناناً!! أين الحنان يا رب ؟! أين الأب ؟! أين الأم ؟ ؟! أين الأم التي أضع رأسي على صدرها أين الأب الذي ينفق عليَّ ويرعاني أين الأخ الذي يحميني من الذئاب... أين... أين... ؟! أين الأوفياء في هذه الأرض... ؟...

رمت بغطائها... وقامت منفوشة الشعر... قالت : سأستريح اليوم... سأستريح . أسرعت إلى خزانة فيها سكين ، أرادت أن تنتحر ، لكنها ذكرت وهي في منتصف الطريق أن لها أباً ، وأماً ، وأخاً ، وأنها لن تبقى في هذا المشفى إلا ثلاثة أشهر . قالت سأستريح بعد ثلاثة شهور ، سأذهب إلى بيتنا لأبقى مع أمي وأبي . هانت عليها الأمور عندما فكرت بذلك ، فعادت إلى سريرها لتنام نوماً هانئاً رغم صراخ الأطفال حولها والعويل .

مضى الشهر الأول ، واعتادت ساموِرا على حياتها الشقية المتعبة ، كان الرجال حولها كالذئاب ، صاروا يضايقونها لأنها لم تلن لهم . وأشد ما كان يؤلمها أن سوندا دخلت قسم التوليد بعد أن شفيت ، وطلبت إجهاضها ، وبعد أن شفيت صارت كالنساء

الأخريات ، لا ترد طالباً ، ولا تستنكف عن دعوة حمراء . قالت لساموراً : لا أنصحك أن تفعلي كما أفعل ، لكنني ـ بسلوكي هذا ـ قد أعثر على خطيب جديد ، قد أعثر على شهم يرضى أن أكون له ، ويكون لي ، ويكون لنا ولد نربيه .

ومضى الشهر الثاني ومنتصف الشهر الثالث ، والحياة كما هي دون تبديل .

فجأة حدث ما لم تتوقع ساموراً : رأت أمها تدخل المشفى مع مسيو أندريه . شحب لونها من المفاجأة ، ظنت أنها جاءت تسأل عنها . فقالت في نفسها : بعد كل هذه المدة جاءت أمي تسأل عني ؟!... لكن لابأس . تعرضت لها... وصاحت : ماما... أنا هنا يا ماما... تريثت أمها قليلاً ، ثم أسرعت إليها ، وصافحتها بحذر ، قالت لها : ماذا تفعلين هنا يا ساموراً ؟! أجابتها : منذ تركتموني وأنا أعمل هنا مقابل أن يعفيني المشفى من تكاليف علاجي... عجبت الأم وقالت : ظننت أن أباك قد أخرجك من المشفى وأخذك معه وابتعد عنا... إننا لم نره منذ افترقنا...

بكت ساموراً ، وقالت : إنني أعيش هنا العذاب يا أمي ، لقد شفيت ، أرجوك خذيني معك .

كان أشد الجميع عجباً هو المسيو أندريه ، سأل سانيت الأم : هل هي ابنتك حقاً ؟!... أجابته بهزة من رأسها : نعم... نعم .

فهمس : مسكينة ساموراً ، أظنك قد شقيت في عملك . هيا إلى ملابسك. . . ثم إلى بيتك مع أمك ، وسأدفع أنا بقية ما عليك للمشفى .

امتعضت سانيت الأم ، بينما كانت ساموراً تسبح في الخيال ، كانت تسأل نفسها : هل انتهى عهد الشقاء ؟! . . . لكنها نظرت إلى مسيو أندريه ، رأته يحمل عيني ذئب ، شعرت أنه يريد أن يقبض منها ثمن معروفه سهرات وسهرات ، ونظرت إلى أمها سانيت رأتها قد ضاقت بها ذرعاً ، فقالت وهي تنظر إلى الأرض ، شكراً يا مسيو أندريه . سأكمل مدة عملي هنا ، وأذهب بعدها إلى بيتي ، وقد أعود لكم لأعمل طوال حياتي في هذا المشفى . ابتسمت أمها سانيت ، بينما كانت ساموراً ترتجف من الألم ، لكنها كانت تكبت دموعها بسد من ألم . ابتسمت ، وقبلت يد أمها ، وصافحت مسيو أندريه ، والتفتت عائدة إلى عملها في محضن الأطفال .

قال مسيو أندريه : إنها عنيدة . إنني أحاول أن أرفه عنها منذ أن بدأت عملها في هذا المشفى . لكنها تتهرب مني ، ومن غيري ، كأنها ليست امرأة . احتقن وجه سانيت الأم بالغيرة . همست لنفسها : هذه الخبيثة يركض الرجال خلفها ، وتفر منهم ، ونحن نلاحق الرجال دون أن نحظى بواحد منهم إلا بعد عناء. . .

أدرك مسيو أندريه ما دار في خاطر سانيت الأم ، همس : سيدتي سانيت ، ستكون سهرتنا هذه الليلة صاخبة ، تريدينها في

بيتي أم في بيتك ؟!. . . تمتمت وقد عادت إليها روحها ، في بيتك. . . كله أناقة وجمال ومتعة ، لن أنسى طوال حياتي سهراتي معك في ذلك البيت السحري . ابتسم مسيو أندريه وقال : أنا موافق. . . بشرط أن تكون سهرتنا التالية في بيتك بعد ثلاثة أسابيع . لم تفطن لما يريد. . . إنه يريد أن يستمتع بسامورا. . . فهي بعد ثلاثة أسابيع ستكون في بيت أمها. . . وافقت فوراً ، وغادرت المشفى وهي تمني نفسها بالمتعة ، لقد فازت الليلة بصيد ثمين شره .

* * *

أريد أن أصبح أماً

سوندا حبيبتي ، أريد أن أراك ، قالت سامورا في الهاتف ، أجابت سوندا : بعد دقيقتين سأكون عندك ، عانقتها بحنان ، وجلستا تتسامران في حديقة المشفى . كانت الساعة قريباً من العاشرة ليلاً .

قالت سامورا : سأتركك يا سوندا بعد أيام ، لكنني لا أدري هل سأجد صديقة مثلك ؟! أم أعيش بعيدة عن كل عطف... أرجوك هل تسمحين لي أن أتصل بك دائماً ؟ . . .

نظرت سوندا إلى النجوم ، وهمست : كتب علينا العذاب يا سامورا . إن مجتمعنا الظالم لا يعرف الرحمة ، لا يعرف الحنان ، ولا يعرف المرأة إلا للمتعة ، يلقي فيها الرجل شهوته ، أو خادمة تعمل طوال العمر .

أما أن تكون ابنة محبوبة . . . فلا

أما أن تكون زوجة لرجل واحد . . . فلا

أما أن تكون أماً ترحم أطفالها. . . فلا

أما أن تكون أختاً محترمة. . . فلا

لكن هؤلاء المجرمين لا يدركون أن المرأة حين تشقى ، فإنها تشقي الأمة كلها ، إنها هي التي تلد اللقيط ، وهي التي تهمل الابن ، وهي التي تسعى خلف العشيق بعيداً عن الزوج. . . لكنهم لا يريدون أن يفهموا .

بكت سوندا. . . وطفرت الدموع من عيني سامورا. . . ومرت ساعة كاملة وهما تبكيان بصمت. . .

قالت سامورا : لا ينفع البكاء يا سوندا. . . يجب أن نغير هذا الوضع أو نموت. . . تمتمت سوندا : وكيف نغير هذا الوضع يا سامورا. . . ؟!. . . الظلام دامس. . . قاطعتها سامورا : أنا أعاهدك أن لا أعاشر رجلاً إلا إذا كان زوجاً. . . وإن تزوجته فسوف أشترط عليه أن أنجب أطفالاً. . . وأن أعمل خارج بيتي مادام عملي لا يتعس طفلي وزوجي ، فإذا سبب لهم إزعاجاً تركت العمل غير آسفة. . . أريد أن أصبح أماً. . . وأريد زوجي أن يصبح أباً. . . وأريد أن يشبع أطفالي من الحنان. . . قاطعتها سوندا : كفاك أحلاماً يا ساموا. . . ستموتين حتماً قبل أن تجدي لك زوجاً وطفلاً وحناناً. . . أقول لك ، من الأفضل أن نعيش كما يعيش الناس. . . ونرضى بما يرضونه. . . حتى لا نتعس مرتين. . . مرة

حين يتعسوننا ومرة ثانية حين نشعر أننا في تعاسة . . .

لمع في الليل فجأة خيط من نور . . . ثم سمع الجميع انفجاراً . . . عميقاً . . . لكن سامورا صرخت : حريق . . . حريق . . . صرخت سوندا : إنه في جناح الأطفال يا سامورا . . . صرختا وهما تركضان . . . النجدة . . . النجدة . . . النجدة . . . وصلت سامورا إلى جناح الأطفال . . . وجدت موقد الغاز قد انفجر . . . وكادت النار تصل إلى شقق الأطفال . . . راحت تصرخ وتولول وتنقل الأطفال من أسرتهم . . . اشتغل جميع العاملين في المشفى بإطفاء النيران . . . وأخرجت سامورا وسوندا جميع الأطفال إلا شقة واحدة فيها ثلاثة أسرة قد حاصرتها النيران . . . بكت سامورا . . . لم يجرؤ أحد أن يقترب . . . لكنها أسرعت وجلست تحت صنبور الماء حتى بللت ثيابها كلها . . . اخترقت النيران . . . ووصلت إلى الشقة . . . لفت الأطفال الثلاثة ببطانيات غليظة وحملتهم دفعة واحدة وخرجت عابرة سور النيران . . .

فلما اجتازت النيران وقعت على الأرض مغشياً عليها . . . حملت إلى الإسعاف فوراً . . . صاحت سوندا : أنت بطلة يا سامورا . . . كانت تبكي . . . بكاء مراً . . . كانت تشرف بنفسها على إسعاف سامورا . . . بقيت سامورا ثلاث ساعات غائبة عن الوعي . . . وأخيراً أفاقت . . . همست : كيف الأطفال ؟! همست لها سوندا : لقد أنقذتهم كلهم يا سامورا . . . كلهم بخير . . .

فكيف أنت يا حبيبتي ؟! همست ساموراً : إذا كان الأطفال بخير . . . فأنا بخير . . .

لم تدر المسكينة ساموراً أن الحروق قد أصابت كل موضع مكشوف من جسمها . . . وشعرها الأسود الفاحم قد احترق كله . . . وكذلك عنقها . . . لكن الحروق كانت عادية . . . لم تمس إلا بشرتها الناعمة . . . في كل أنحاء جسمها تقريباً إلا ما ستره بنطالها السحري . . .

ابتسمت ساموراً حين أخبرتها سوندا بذلك . . . فرحت . . . وفرحت . . . وفرحت . . . حتى نسيت جميع ما أصابها من حروق . . .

أسفت بعد تسعة أيام أشد الأسف حين غادرت سريرها ورأت في المرآة أن شعرها الفاحم قد التهمته النيران . . . أصبح شكل رأسها محزناً . . . قالت لها سوندا : تضعين على رأسك شعراً مستعاراً يا ساموراً ريثما ينبت شعرك الجديد . . . أجابتها ساموراً : لا . . . سأغطي رأسي كالراهبات حتى ينبت شعري . . .

ناولتها سوندا بعد ساعات علبة رائعة الألوان . . . فتحتها ساموراً فوجدت فيها مترين من حرير متماوج الألوان . . . أحاطت به ساموراً رأسها . . . فبرز وجهها كالبدر . . . وغطى ذلك الحرير رأسها المحروق . . .

همست سوندا : رائع... رائع... أصبحت أجمل مما كنت يا ساموا... ابتسمت ساموا ونظرت إلى تقويم الحائط وقالت : بقي لي ستة أيام حتى أغادر عملي في هذا المشفى ، قد أعود إليك يا سوندا... لأعمل هنا ، وقد لا أعود .

زارها مسيو أندريه... ومسيو جوبان... وجميع العاملين والعاملات... والأطباء كلهم أهدوها هدايا فاخرة...

ودّعوها جميعاً قبل يومين من انتهاء مدة عملها... وأقاموا لها حفلة ساهرة... كانت نجمة بين نساء الحفلة... ببنطالها الجميل... وغطاء رأسها الفاخر... أحبها الجميع كراهبة متبتلة... كانت تسمع الضحكات... وترى الراقصين والراقصات... لكن ما تجرّأ رجل واحد أن يقترب منها... كانت تتجول مع سوندا تعيشان حالة وداع قاس... لقد كبرت ثلاثين عاماً في الأشهر الثلاثة الماضية...

عانقتها سوندا حين جمعت أمتعتها للرحيل... وبكت العاملات كلهن على ساموا التي لم تتدنس... تمنين جميعاً لو كن مثلها... والرجال فقط كانوا يخشون منها... ويخشون من المستقبل... كانوا يقولون : إذا أصبح النساء كلهن كساموا فلا متعة ولا شهوات... بينما كانت العاملات كلهن يقلن : إذا كنا جميعاً مثل ساموا... فسيضطر الرجال للزواج منا... واحترامنا... سيختفي اللقطاء... وتزول التعاسات من حياة

الأبناء والبنات ، وسنصبح من أسعد النساء. . .

لكن. . . هل يمكن أن يتحقق ذلك. . . ؟!. . .

كن يتهامسن : أنا أراهن أن ساموراً لن تستمر. . . وتقول أخرى : لن تستطيع. . . لن تستطيع. . . وتكمل ثالثة إلا إذا أصبحت راهبة. . . وتقول رابعة : وإن أصبحت راهبة فهل ستنجو من الرجال ؟!. . .

وقفت سيارة المشفى أمام بيت ساموراً. . . في الساعة الثامنة مساء. . . نزلت سوندا. . . حاملة مجموعة من علب الهدايا وأسرعت نحو باب المنزل. . . بينما حملت ساموراً حقيبتين وأسرعت خلفها. . . وحمل السائق ما بقي من أمتعة ، لم يتحرك أحد في المنزل بعد أن ضغطت سوندا زر الجرس. . . كانت الموسيقى تصدح داخل المنزل. . . وقف الثلاثة قريباً من خمس دقائق ، دون أن يفتح أحد. . . التفتت ساموراً إلى السائق ، وشكرته ، ورجته أن يعود إلى المشفى. . .

غادرت السيارة المكان. . . وراحت ساموراً تنظر في عيني سوندا المترعة بالدموع. . . رنت ساموراً الجرس مرة أخرى. . . سمعتا قهقهات وضحكات بعيدة. . . إنها قهقهات سانيت أمها. . .

ابتسمت ساموراً وقالت : إنها في الداخل. . . يبدو أنها في حالة نشوة. . . مع عشيق مناسب. . . إنها لا تسمع رنين

الجرس. . . تناولت ساموراً جميع الحقائب والعلب ، ورتبتها قرب الباب. . . وجذبت سوندا من يدها وهي تقول لها : تعالي نجلس معاً في هذه الحديقة. . . همست سوندا : هل تعودين معي إلى المشفى لننام في غرفتنا. . . امتعضت ساموراً وهمست : لا. . . لا. . . لا تستعجلي. . . لابد أن تخرج أمي من غرفتها لحاجة ما. . . عندها نرن الجرس. . . فتنتبه وتفتح لنا. . . همست سوندا : حسناً. . . سنبقى إذن قريباً من هذا الباب حتى نبادر إلى رن الجرس حين تخرج أمك من غرفتها .

كانت الضحكات البعيدة تتتابع. . . وأنغام الموسيقى تزداد اصطخاباً. . . مع صرخات رجل يغني وهو في حالة سكر كامل .

جلستا على درج الباب تتسامران. . .

همست ساموراً : سوندا حبيبتي. . . ما العمل الذي تقترحين أن أعمل في المشفى إن رجعت إليه . اختاري لي عملاً مريحاً ومعقول الأجر ؟!. . . أجابتها سوندا : إن مهنة الغسيل بالغسالات مريحة نسبياً. . . لكن أقل المهن تعباً وأكثرها أجراً هي مهنة السكرتيرة ؛ سكرتيرة أي مدير في المشفى. . . لكنهم يشترطون أن تكون السكرتيرة قد حصلت على شهادة خاصة بالسكرتارية ؛ سألت ساموراً : وهل هناك معاهد خاصة للسكرتارية ؟!. . . أجابتها : نعم يا ساموراً. . . ويمكنك أن تنتسبي إلى أحد هذه المعاهد. . . لكن. . . (وصمتت). . . سألتها ساموراً بلهفة :

ولكن ماذا يا سوندا ؟! أجابتها سوندا : إن مدة الدراسة تستمر سنة ، وهم يطلبون رسوماً مرتفعة كشرط للانتساب ؛ ثلاثة آلاف فرنك!! اصفر وجه سامورا وندت منها صرخة أسف : آه . . . هذا غير ممكن . . . من أين آتيهم بكل هذا المبلغ . . . ؟ . . . أشارت سوندا بيدها إشارة ضجر وقالت : لكن أجر السكرتيرة بعد أن تتخرج أجر مرتفع يا سامورا . . . ألف فرنك كل شهر . . . قاطعتها سامورا : لكن من أين نأتي بالرسوم ؟! . . . عجبت سوندا لقولها . . . التفتت إليها بدهشة وقالت لها : قلت من أين نأتي بالرسوم! كأنك تريدين أن ندخل معهد السكرتارية معاً . . . إنها فكرة مدهشة حقاً ، كانت دهشة سامورا أشد منها . . . لقد خرجت الكلمات منها دون وعي . . . وابتسمت سوندا . . . وتعانقتا على قارعة الباب . . . قالت سوندا : لدي في البنك ألفان وخمسمائة فرنك ، وفرتها خلال السنوات الثلاثة الماضية . . . قاطعتها سامورا : لا . . . لا . . . لن آخذ منك فرنكاً واحداً . . . ابتسمت سوندا وهمست : لن أعطيك يا سامورا . . . أفكر في حل آخر . . .

فجأة زاد صخب الموسيقى . . . واقتربت ضحكات ناعمة من الباب . . . قفزت سامورا وهي تقول : قد خرجت أمي من غرفتها ، أمسكت سوندا بيد سامورا وقالت : اجلسي يا سامورا ، أمك الآن في حالة سكر ونشوة . . . لا تزعجيها حتى لا تتصرف معك تصرفاً أحمقاً . . . انتظري . . . انتظري . . . نظرت إليها

سامورا... ثم عادت وجلست قربها... وخيَّم الصمت بينهما...

رأيا من بعيد سيارة تقترب... ثم وقفت قربهما... وقفت سوندا وحاولت أن تسرع بسامورا بعيداً... قالت لها: أنه مسيو أندريه يا سامورا... تعالي نبتعد... وقفت سامورا... لكن مسيو أندريه نزل بسرعة من سيارته وقال: مساء الخير يا سوندا... مساء الخير يا سامورا... وقفتا... اقترب منهما... وصافحهما... شعرتا بالحرج... لولا أن سامورا بادرت وقالت: أحببنا أن نمضي بعض الوقت في هذه الحديقة... رنت الساعة معلنة العاشرة... نظر مسيو أندريه إلى ساعته وقال: قد تأخر الوقت... هل تدخلان لنسهر معاً... شدت سامورا بنطالها، وهمست... أتمنى ذلك يا مسيو أندريه... عجبت سوندا... لكن سامورا ضغطت على يدها سراً... فابتسمت... أسرع مسيو أندريه إلى باب البيت فوجده مغلقاً... ضغط الجرس... فسمع الجميع خطوات سريعة تقترب... فتح الباب وظهر شاب يبلغ الثلاثين من العمر... كان ثملاً... قال بغلظة: من تريد يا مسيو ؟! أجاب: سانيت... أريد سانيت... أصابت الحيرة الشاب... ثم قال: إنها... إنها متعبة... أقصد نائمة... نائمة... لكن قهقهات اقتربت... صاحت: جان... من هناك ؟!... زاد ارتباك جان... وهمس يبدو أنها

قد استيقظت... تفضلوا... تفضلوا... خرجت سانيت من قاعة النوم... ارتبكت قليلاً حين رأت مسيو أندريه... قالت : أهلاً مسيو أندريه... أشكرك على كرمك... هل أحضرت ساموراو رفيقتها معك... شكراً لك...

أجاب مسيو أندريه والدهشة تملؤه : لا... لا... ألا تدرين أن ساموراو سوندا هنا... ؟!... كانتا تتسامران في الحديقة... نظر الجميع إلى ساموراحين قالت : عفواً... كنت مع سوندا في الحديقة نتسامر فعلاً... وجدنا الباب مغلقاً... فلم نرغب أن نزعج أمي... التي ظننتها نائمة... راح جان يتأمل ساموراباستغراب وكذلك راحت أمها تتأملها... سأل جان : هل أنت راهبة يا سامورا ؟!... قاطعه مسيو أندريه : لو دخلنا!! أتحبون أن نرجع... ؟!... صاحت سانيت الأم : لا... لا... عفواً... تفضلوا... دخل الجميع إلى قاعة الجلوس... بينما راحت ساموراو سوندا تدخلان الحقائب... همست سامورا وهي تقدم لأمها علبة فاخرة : هذه هديتي لك يا أمي . تناولت سانيت الأم العلبة وفتحتها . وجدت بنطالاً رائعاً... همست : جميل... مدهش... شكراً يا سامورا... نظر مسيو أندريه إلى سامورا مستغرباً... بينما كانت سوندا تتظاهر بالتشاغل مع جان . قالت له : سعدت بلقائك يا مسيو جان... اقترب منها وجلس قربها متودداً... زاغت عينا سانيت ، ثم وقفت بعصبية وجلست

قرب مسيو أندريه ، وقالت بصوت مسموع : كيف أنت يا حبيبي . التفت جان إليها غاضباً وقال : هل تسمحان لي بالانصراف . قال مسيو أندريه : لا . . . لا . . . لا نريد إزعاجك تعالوا نسهر معاً . . . هيا يا سانيت أسمعينا قطعة موسيقية راقصة . أسرعت سانيت ، وابتدأت الألحان تنساب صاخبة مثيرة همست سامورا : أمي أنا متعبة ، هل تسمحين لي أن أنام ؟ ؟ صاحت سانيت : ولتذهب معك صديقتك أيضاً . أما أنا فسأرقص مع مسيو أندريه ومسيو جان حتى الصباح . قالت سامورا : ستزدادين حلاوة إن رقصت بالبنطال يا ماما . . فكرت سانيت قليلاً ثم قالت : لا . . . لا . . . إنه سيضايقني لاشك . ألبسه وأخلعه . . . ثم ألبسه وأخلعه . . . لا . . . لا . . . لن ألبسه الليلة ، وقد لا ألبسه أبداً . . . ابتسم الذئب أندريه . . . وابتسم التيس جان . . . وغادرت سامورا القاعة مع سوندا . . .

قالت سوندا : والآن . . . هل تسمحين لي أن أذهب ؟! قالت سامورا بغضب وهي تحاول إخفاء صوتها : تغادرين ؟! . . . ألم نتفق أن تنامي عندنا الليلة ؟! . . . ثم كيف تتركينني يا سوندا مع هؤلاء الذئاب ؟! . . . سيسكرون . . . ويسكرون . . . ويسكرون . . . ثم سيفقدون عقولهم . . . ولا أدري كيف سيفكرون بعدها . . . وكيف يتصرفون . . . ؟! . . . قالت سوندا : حسناً سأبقى معك يا سامورا . دخلتا غرفة فيها سريران ، أغلقتا

بابها... ثم أقفلتاه... ثم أطفأتا المصباح... « نامتا » بينما كانت ضحكات سانيت ، وأغاني جان وأندريه تسمعان من بعيد ، همست ساموروا وهي تغطي رأسها : ما أوقح هذه الأغاني... ؟!... لم تعلق سوندا بكلمة واحدة ، لأنها كانت تفكر فيما هو أهم من ذلك . هل تترك المشفى وتدخل معهد السكرتارية مع ساموروا ؟! قالت : إذا أصبحت سكرتيرة فقد أجد زوجاً . أما وأنا مدفونة بين الأحذية والغسيل في المشفى فالزوج مستحيل . ثم ابتسمت برضى ، ثم تابعت تفكيرها : لكن كيف سأوفر لساموروا المال اللازم للمعهد... يجب أن ندخل المعهد معاً ، إذا تابعت عملي في المشفى ثلاث سنين أخرى حتى يتوافر لنا المال اللازم... فهذا طويل سيصبح عمري كبيراً ، وقد تفلت فرصة الزواج مني . يجب أن أجد حلاً أفضل . تساءلت : ساموروا فتاة قوية وحازمة . لماذا لا نعمل معاً حتى نوفر المال اللازم ؟!... ابتسمت وقالت : عظيم... عظيم... لكن في أي ميدان ستعمل ساموروا... ؟! أتعب هذا السؤال رأسها ، وبقيت ساعتين تفكر كي تجد حلاً . وأخيراً نامت رغماً عنها .

* * *

روضة أطفال

دقت الساعة معلنة الخامسة... فقفزت سوندا من فراشها كالمجنونة... صاحت الخامسة... ؟... ابتدأ العمل دون أن آكل وألبس ؟!... فتحت ساموراً عينيها وقالت : نسيت أنك في إجازة يا سوندا... !... ألقت سوندا نفسها فوق السرير وهي تقول : أوه... ما أجمل الإجازة... غطت نفسها... ثم راحت في نوم عميق...

نهضت ساموراً بهدوء... وخرجت من الغرفة بعد أن لبست ثياب العمل... تفقدت البيت كله بهدوء... ثم راحت تنظفه وترتبه... الطاولات مشعثة... بعضها عليه كؤوس مقلوبة ، وبعضها عليه زجاجات خمر فارغة... وصحون الطعام... بعضها على الطاولات... وبعضها على الأرض... وأشرطة الموسيقى مرمية بعضها على الأرض... وبعضها على طاولة قريبة... وبعض الثياب مبعثرة هنا وهناك... منها بنطالان رجاليان... وقميص نسائي... وجرابان نسائيان...

أسرعت... فوضعت كل شيء في مكانه... ورتبت القاعة ثم مسحتها... ومسحت الطاولات... واقتربت من غرفتها القديمة... لم تجد فيها سريرها... ولا سرير أخيها بورجيه ، رأت الغرفة قد تحولت إلى مستودع للخمور ، لها رفوف مملوءة بزجاجات الخمر .

دخلت المطبخ وراحت تنظفه وتغسل الصحون... وتهيىء فطوراً للجميع . هيأت طاولة الطعام لخمسة أشخاص... ثم عادت إلى غرفتها تسير على رؤوس أصابعها...

لم تجد سوندا في فراشها... عجبت لذلك... هجمت عليها سوندا من الخلف... وتضاحكت الاثنتان كان يوماً سعيداً...

قالت سامورا : سأعمل خادمة عند أمي... لا شك أنها أرحم من إدارة المشفى... همست : لا أدري أين ذهب أبي!! وأين هو أخي...!!

قالت سوندا : كم تقدرين أن تدفع لك أمك ؟!

أجابتها : سأقبل منها أن تطعمني وتؤويني... ريثما أفكر في عمل مناسب ، لا أريد أن أطلب منها فرنكاً فوق ذلك... إنها أمي...

همست سوندا : ما أروعك يا سامورا!! هل ترين أن ندخل معهد السكرتارية معاً ؟... لم تنتظر إجابتها بل بادرت تقول :

عزمت على ذلك. . . وانتهى الأمر. . . وفكرت أن نعمل في عمل ما ونجمع منه بقية الرسوم لي ولك .

قالت ساموراً : تعيشين في الأحلام يا سوندا. . . ؟. . . أطلت من النافذة إلى الحديقة فرأت سيارة أطفال فيها ممرضة تتناول من جيرانهم طفلاً رضيعاً. . . فراحت تتابع المنظر حتى تحركت السيارة مبتعدة. . . ثم وقفت أمام بيت آخر على بابه امرأة تحمل بيدها طفلاً آخر. . . ومازالت السيارة تنتقل من بيت إلى بيت حتى جمعت عشرة أطفال. . . كانت تتابع المنظر معها. . . جلست ساموراً على كرسي وقالت : لقد وجدت المال اللازم لمعهد السكرتارية يا سوندا. . .

نظرت سوندا إليها بدهشة ، لم تجد بين يديها شيئاً . قالت وهي تبتسم : وهل نزل المال عليك من السَّماء يا ساموراً ؟!. . . كأنك نبيَّة من الأنبياء ؟!. . . همست ساموراً : نبيَّة من الأنبياء ؟!. . . ما معنى هذا الكلام. . . ؟!. . . لا أفهم ما تقولين. . . قاطعتها سوندا : لا بأس . سأفهمك معناه يوماً. . . لكن قولي لي الآن : أين المال الذي تتحدثين عنه ؟!. . .

ضحكت ساموراً لأول مرة منذ ثلاثة شهور ، وقالت : سأفاوض أمي أن تفتح في بيتها هذا دار حضانة تؤوي فيها خمسين طفلاً من أطفال الحي . قفزت سوندا وصاحت : فكرة مدهشة ، قاطعتها : كم تأخذ دور الحضانة أجوراً عن كل طفل في الشهر ؟!

قالت سوندا بحماس : عشرين فرنكاً ، مع تكاليف الطعام وأجور السيارة . أما أجور السيارة فيأخذها صاحب السيارة لأنك لا تمتلكين سيارة . قالت سامورا : لا . . . إن أمي تمتلك سيارة ؟! . . . أنظري إليها . نظرت سوندا إلى الحديقة فرأت سيارة صغيرة . تابعت سامورا : عظيم . . . عظيم . ستقود أمي السيارة ، وأتناول أنا الأطفال . ثم ننقلهم إلى بيتنا ، وأعتني أنا بهم . . . ضمتها سوندا إلى صدرها بعنف ، فشدّت سامورا بنطالها ، ولما رأت سوندا ذلك منها . . . نظرت إليها بدهشة ، ثم ضحكتا معاً ضحكة رائعة .

قالت سامورا : والآن تعالي ندرس أين سنضع أسرة الأطفال ، حتى تكون فكرتنا واضحة تماماً ، لا تثير عند أمي سانيت أي اعتراض .

سألت سوندا : كم غرفة في بيتكم يا سامورا ؟ . . . أجابتها : أربع غرف عدا قاعة الرقص وغرفة النوم التي تلاصقها . قالت سوندا : حسناً تعالي نشاهد الغرف الأربع . . . رأتا غرفتين كبيرتين ، وغرفة صغيرة قربها مطبخ ، وغرفة أصبحت مستودعاً للخمور قالت سامورا : إنها كانت تنام فيها مع أخيها بورجيه .

اتفقتا أن الغرفتين الكبيرتين تتسع كل واحدة منهما لعشرين سريراً ويمكن أن توضع عشرة أسرة في الغرفة الصغيرة ، مع خزانة الألبسة ، وزجاجات الإرضاع .

كانت الغرف الثلاث تطل على الحديقة ، تدخلها الشمس حتى الظهر ، وهن فارغات إلا من بعض عفش البيت وأدواته المعطلة ، مع خزانة ألبسة أبيها وأخيها ، وثيابها هي ، وثياب أمها العتيقة المهجورة .

* * *

معهد السكرتارية.. الأمل المنشود

تناول الخمسة طعام الإفطار ، وغادر مسيو جان ومسيو أندريه البيت ، كانا قد أصبحا صديقين حميمين بعد تلك الليلة الحمراء المشتركة . اتفقا أن يعودا إلى بيت سانيت الأم بعد يومين على الأبعد. . . ليسهر الثلاثة معاً .

سألت سانيت الأم : ماذا ستعملين يا ساموراً ؟!. . . هل وجدت عملاً. . . لا أستطيع الإنفاق عليك ؟!. . .

ارتجفت سوندا من المفاجأة ، ما كانت تتوقع أن تكون الأمهات على هذه الشاكلة . إنها معذورة. . . لأنها لقيطة. . . لم تعرف أماً ولا أباً. . .

ابتسمت ساموراً وقالت : وسأجعلك تربحين الكثير من المال يا ماما. . . فما رأيك ؟! . انتبهت سانيت الأم بعنف ولانت جلستها. . . وسألت : وكيف ذلك يا ساموراً ؟! أجابتها : تعلمين أني قد عملت في رعاية الأطفال في المشفى. . . لقد أتقنت هذا العمل بشكل ممتاز. . . قاطعتها حسناً. . . تابعت ساموراً :

علمت ان دور الحضانه تاخد عشرين فرنكا على الاقل عن كل طفل... دون أجور السيارة وثمن الطعام!!... همست سانيت : فكرة رائعة... لقد كبرت كثيراً يا ساموراً...

ابتسمت سوندا... وتابعت ساموراً : إن خمسين طفلاً يدفعون ألف فرنك... وأجور السيارة خمسمائة فرنك... ويتوفر لنا من ثمن الطعام الذي نشتريه بالجملة سبعمائة فرنك أخرى... فيمكن أن نقول أن الربح سيكون ألفين من الفرنكات... إذا اعتبرنا أن تكاليف السيارة ستكون مائتي فرنك في الشهر... فما رأيك ؟!... هتفت سانيت الأم : عظيم... عظيم... لكن كم يكلف ثمن الأسرة والفرش وثمن الزجاجات... والأدوات اللازمة... أجابت ساموراً : لن يكلف ذلك أكثر من خمسة آلاف فرنك ، يمكن أن تدفع تقسيطاً...

قاطعتها سوندا : فإذا اتفقتما أن تأخذ ساموراً النصف ، وأنت يا سيدتي النصف فيكون ربحكما عظيماً...

أجابت سانيت الأم : قبلت بشرط أن لا تأخذ ساموراً خلال الأشهر الثلاثة الأولى فرنكاً واحداً حتى ندفع ثمن التجهيزات... وبعدها تأخذ نصف الربح...

هتفت ساموراً : أنا موافقة... تعالوا نكتب عقداً لمدة ستة أشهر بهذا المعنى... لنجرب ما سيجري معنا... كتبت سوندا العقد... وقالت : سأسجل هذا العقد في سجلات المخفر...

فما رأيكما ؟! وافقت ساموراً. . . ووافقت سانيت الأم لأنها رغبت أن لا تغير ساموراً رأيها. . . وفعلاً تم تسجيل العقد في مخفر شرطة الحي. . . فأصبح المخفر ضامناً لتنفيذه. . .

* * *

تفكُّك الأسرة

وزع الثلاثة دعوة مطبوعة على بيوت الحي . . . وتم التعاقد مع أهل خمسين طفلاً . . . واشترت سوندا وسامورا التجهيزات اللازمة . . . وغادرت سوندا البيت في اليوم التالي وهي في غاية الفرحة ، إنها ستدخل مع سامورا معهد السكرتارية بعد ستة شهور أو سبعة . . .

مضت الشهور الثلاثة الأولى بسلام عرفت سامورا خلالها أن أباها يعاني من أزمة مالية . . . وعلمت أن أمها سانيت قد طردته من بيتها الذي ورثته عن أبيها على أمل أن يقطع علاقاته مع عشيقاته . . . لكنه كان قد ملّ هو من عشاقها . . . فترك البيت . . . وأمها سانيت لم تأسف عليه . أما أخوها بورجيه فقد حزن على فقدان أبيه وأخته ، فطردته أمه من البيت بحجة أنه قد أصبح له من العمر ثمانية عشر عاماً واصبح مسؤولاً عن نفسه . زار أخته سامورا ، وزار أمه ، ورضي أن يكون سائقاً لسيارة أمه التي تحمل أطفال الحضانة ، من بيوتهم إلى بيت سانيت ، مقابل أن تعطيه أمه

ثلاثمائة فرنك كل شهر أجراً ، مع طعامه ، كان يتابع دراسته في قسم الأديان في الجامعة .

أخبرتها سوندا أن معهد السكرتارية قد قبل طلبهما مشروطاً برؤيتهما في مقابلة اختبارية أمام لجنة قبول السكرتيرات في المعهد .

* * *

أُخرجي من بيتي

كانت أمسية رائعة حينما قبضت سامورا أول ألف فرنك في نهاية الشهر الرابع ، قبلتها سوندا ألف قبلة .

عجب بورجيه أخوها ، لماذا تأخذ ألف فرنك ؟! همس في أذن أمه لماذا تأخذ سامورا أخته نصف الأرباح . لو أحضرت ممرضة بدلًا منها لرضيت منك بخمسمائة فرنك كل شهر ، العمل لا يزيد عن أربع ساعات كل يوم ، طاش صواب سانيت الأم ، وقالت في نفسها : صدق بورجيه . استدعت سامورا وصرخت بها : سامورا ، إما أن تقبلي بخمسمائة فرنك كل شهر أجراً ، أو أطردك من بيتي . بكت سامورا وقالت : لكننا اتفقنا هكذا يا أمي ، أريد أن أجمع قسط المعهد خلال الشهور الثلاثة التي اتفقنا عليها . صاحت بها أمها : أنا لا أعرف ، أنت مخادعة ، إما أن تقبلي بخمسمائة فرنك راتباً كل شهر أو أطردك . وتدخلت الشرطة ، وأجبرت سانيت الأم على إتمام عقدها مع ابنتها سامورا لمدة ستة أشهر بالشروط السابقة ، وما أن انتهت الشهور الستة حتى

قبضت سانيت الأم على عنق سامورا وقالت لها : هاقد صار معك ثلاثة آلاف فرنك ، أخرجي من بيتي . قالت لها سامورا وهي تجمع ثيابها : والله لو لم أكن بحاجة لهذه الآلاف لدخول معهد السكرتارية لأعطيتك إياها كلها يا أمي . صرخت بها أمها : كاذبة . . . كاذبة . . . أخرجي من بيتي .

خففت سوندا عنها ، وقالت لها : لابأس . غداً سنبدأ الدوام في المعهد ، سننام هناك ، ونأكل لمدة سنة كاملة ، وقد نجد عملاً نملأ به ما لدينا من وقت ، أجابتها سامورا : لكنهم لم يقبلونا بعد يا سوندا ؟! . . . قد يرفضوننا ، قاطعتها سوندا : لا . . . لا . . . إنهم يشترطون أن لا تدخل المعهد إلا الجميلات ، ولن يرواأجمل منك ، أما أنا فمقبولة ، ضحكت سامورا وشدت بنطالها ، وضحكت سوندا معها من كل قلبها . وفعلاً رأت سامورا على باب المعهد حين دخلته لافتة مكتوب عليها : عفواً ، نرجو من غير الجميلات ألا يتقدمن لمعهدنا . . . شاع في نفسها أسى بالغ . . . قالت لسوندا : مسكينات غير الجميلات . . . كيف يعشن ؟! . . . المعاهد لا تقبلهن ، والرجال لا يقبلون عليهن ، فليس أمامهن كي يعشن إلا الأعمال الشاقة طوال العمر ، مع الحرمان من كل عاطفة احترام أو حب .

* * *

أستاذ (السُّلوك العملي)

راح رئيس لجنة المقابلة في معهد السكرتيرات يتفرس في ساموراً طولاً وعرضاً ، رأته ذئباً كبيراً . قال لها : لماذا تضعين هذا الغطاء على رأسك يا ساموراً . . . هل أنت قرعاء ؟! . . . فكت ساموراً غطاء رأسها ، فظهرت خصلات شعرها الفاحمة التي كانت تنسدل كالليل على وجهها الأبيض وعنقها الناعم قالت : أصابني حريق ، فذهب بشعري ، فصرت أغطيه حتى ينمو ثم اعتدت على غطاء الشعر هذا . . . إنني أشعر بألم في رأسي كلما خلعته ، وسوف أستشير طبيباً من أجل ذلك .

لكن أعضاء اللجنة كلهم ما كانوا يفهمون من كلماتها أي حرف . . . كانوا يتأملون خصلات شعرها الفاحمة . . . كأنهم لم يروا في حياتهم شعراً . . . عجبت ساموراً . . . من رئيس اللجنة حين مد يده يريد أن يداعب شعرها . . . فابتعدت كأنها لسعت . . . فانتبه من غيبوبته . . . بينما كان أعضاء اللجنة كلهم يتنحنحون .

قبل رئيس المعهد ساموزا في معهده . . . كما قبل سوندا . . . وأعطاهما غرفة نوم واحدة .

لم تنس ساموزا نظرات أعضاء اللجنة إلى شعرها وعنقها ، فكرت طويلاً ، هؤلاء ذئاب يجب أن لا يروا شيئاً من المرأة على الإطلاق . . . كل شيء فيها يثيرهم . . .

كانت حفلة بداية العام ذلك اليوم . كان الأساتذة يصافحون المقبولات واحدة واحدة ، ابتدأت الموسيقا تصدح ، وراح الجميع يرقصون ويسكرون ، وانتحى كل أستاذ بمن أعجبته من فتيات المعهد .

كانت ساموزا تكاد تختنق ألماً على أولئك الفتيات ، إنهم يلعبون بهن . . . وهن مسرورات . وكانت سوندا تخفف عنها من آلامها . ثم جرتها إلى حديث عن آمالها في الحياة المقبلة . همست ساموزا : كم أتمنى أن يكون لي زوج أحبه ويحبني . ابتسمت سوندا وقالت : ستكونين أعظم عاشقة في الدنيا . رأتا رجلاً وسيماً في الثلاثين من عمره يقترب منهما . خفق قلب ساموزا له ، واحمر وجهها . قال لها : هل تسمحين أن أجلس معكما . ترددت ساموزا ، وأسرعت سوندا تقول : تفضل يا دكتور سوفان . . . عجبت ساموزا ، لكن سوندا قالت لها : مسيو سوفان ، أستاذ مادة « السلوك العملي » ، ألا تعرفينه يا ساموزا ؟! ابتسمت ساموزا وراح يتأمل شعرها الفاحم نظرت في عينيه فرأت

صفاء عجيباً ، لم تعرف لماذا كان قلبها يخفق بعنف كلما رأت وجهه . قال : لا أحب الرقص مع فتيات المعهد . يجب أن يكون الأستاذ أباً أسطورياً لتلميذاته . هذا ما أومن به كسلوك عملي يجب أن يسود ما بين الأساتذة والطالبات . عجبت سامورا لما سمعت ، إنها تسمع لأول مرة رجلاً يتحدث عن الأخلاق كما تؤمن بها .

انتاب سامورا قلق عجيب وهي تتقلب على فراشها . كانت صورة مسيو سوفان لا تغادر مخيلتها ، أما سوندا فكانت تنام ملء عينيها ، ولأول مرة في حياتها .

دخلت التلميذات إلى قاعة المحاضرات . وجلست سامورا إلى جانب سوندا ، ودخل الأساتذة القاعات . خفق قلب سامورا بعنف حينما دخل الدكتور سوفان القاعة . حيا الطالبات جميعاً وابتدأ يشرح بعض جوانب السلوك العملي الذي يجب أن تسلكه الطالبات . لخص المحاضرة كلها في ثلاث نقاط : الأدب الجم ، ترافقه سرعة التجاوب ، مع مقاومة كل ضغط ، والتمتع بالحرية الكاملة . كانت عينا سامورا تقع في عينيه ، فيطيل النظر إليها ، وهي لا تمل من النظر إليه . أعجبها حزمه ، وعلمه ، وأدبه .

سألته : لو ضربت لنا بعض الأمثلة عن مقاومة الضغوط مقرونة بتمتع السكرتيرة بحريتها الكاملة . أجابها : الإنسان بشكل عام يجب أن يكون مع الحق مع الحقيقة ، مع ما يؤمن به . فإن وجه إليه أحد ضغطاً فيجب أن لا يستسلم له . عليه أن يقاوم الضغط

ويتغلب عليه ، ليحافظ على كرامته النابعة من حريته . والسكرتيرة يجب أن تكون قد هضمت قوانين العمل ، وعرفت حدود كل إنسان في محيطها ، فهي أمام ذلك يجب أن تعطي كل إنسان حقه وفق ما تعرفه عن القوانين التي تنظم هذا المحيط ، الذي نعيش فيه . قد يخالف أحد الناس نظم هذا المحيط ويكون صاحب سلطة ، يجب أن تقف السكرتيرة أمامه بحزم ، وتلزمه حده ، ولا تخضع لضغطه .

سألها : أفهمت يا ساموراً ؟!. . . هزت رأسها وهمست : نعم ، فهمت. . . رأت في هذا الكلام نفسها ، لقد قاومت كل ما سلط عليها من ضغوط .

سألته : كيف نصل إلى الحقيقة ؟!. . . أجابها : بالعلم والتجربة . على كل حال الحقيقة دائماً تبعث الراحة في الوسط والنفس والعقل . إنها وضاءة نيرة ، تهفو إليها القلوب الحرة .

سألته : هل لدى المعهد مكتبة ؟!. . . أجابها : نعم. . . فيها ألوف الكتب الثمينة .

كان يتأمل شعرها طوال الوقت. . . قالت في نفسها : هذا الشعر يجب أن أغطيه .

قسمت ساموراً وقتها إلى ثلاثة أقسام : قسم للدراسة والمحاضرات ، وقسم للمطالعة العامة . وقسم للعمل في معهد

السكرتيرات . فقد طلب إليها الدكتور سوفان أن تعمل سكرتيرة خاصة لأعماله خارج دوام المعهد ، وفي مبنى المعهد ذاته .

كان يبادلها الاحترام ، ويعجب بذكائها العظيم . مضت تسعة شهور قرأت فيها ساموررا خمسين مجلداً .

همست لها سوندا ليلة : يقولون إنك عاشقة يا ساموررا ؟! كم ليلة سهرت معه ؟! . . . أجابتها : لم أسهر معه أبداً . لكنني أشعر أنه لا يغيب عني ، إني أفقده في العطلة ، وأشعر بالحنين إليه ، وعندما أنام ينام معي ، قالت لها : لكنهم يتحدثون أن له عشيقة وعشيقات ، خارج المعهد . أجابتها ساموررا : وقد رأيت بعضهم يترددن عليه . على كل حال لن أترك ما آمنت به ، لن أقبل أن أكون عشيقة ، لن أقبل إلا أن أكون زوجة ، ولي شروط أخرى .

دعاها مساء ذلك اليوم إلى الخروج معه في نزهة . ركبت سيارته ، وانطلقا خارج باريس ، حيث الجنائن والحدائق والغابات . دخلا غابة رائعة . نزلا وراحا يتمشيان. . . قال لها : كم عمرك يا ساموررا ؟! . . . أجابته : بعد شهور يصبح عمري في الخامسة عشرة . قال لها : لكن ذكاءك يفوق ذكاء بنت الأربعين. . . ابتسمت . سألها : هل أحببت يوماً يا ساموررا ؟ . . . أجابته : نعم أحببت . سألها : ومنذ كم ؟! . . . أجابته : منذ سبعة شهور فقط . سألها : وهل يحبك من تحبينه ؟!. . . أجابته : لا أدري. . . لكنني أنتظر أن يفاتحني بذلك ، وسوف

أطلب منه دليلاً على حبه . دهش الدكتور سوفان . وصلا إلى مقعد مريح ، فدعاها إلى الجلوس فجلست : قال لها وهو يتأمل شعرها : هل تقبلين بي حبيباً ؟!. . . ابتسمت سامورا وقالت : بعد أن تبرهن لي عن صدق حبك . قال لها : حسناً. . . هل تسهرين الليلة عندي ؟!. . . أجابت : لا أظن أنك تستطيع أن تقدم لي دليلاً على حبك خلال السهرة . قاطعها : حسناً لن نسهر ، وسترين الأدلة . هل تسمحين أن أمسك بعض خصلات شعرك الرائع. . . أجابته : بعد أن تقدم أدلة كافية .

قبل أن يفترقا على أبواب المعهد قالت له : أعتذر عن الاستمرار في العمل معك كسكرتيرة . شحب وجهه وقال لها : ولماذا هذه القسوة يا سامورا ؟!. . . لكنها أصرت بلطف ، وفي عينيها دمعتان لؤلؤيتان . صافحته ، فأمسك يدها ، فسحبتها بلطف ، وودعته ، ثم استدارت ودخلت المعهد . لم يخطر على بالها إلا أن عليها أن تغطي شعرها الفاتن .

عجبت سوندا في اليوم التالي . فسامورا لم تذهب إلى مكتب الدكتور سوفان . كما لم تذهب إلى المكتبة . بقيت في سريرها تضع كفيها تحت رأسها ، وتنظر إلى السماء ، وتفكر .

حضر العشاء فلم تأكل ، بقيت حتى منتصف الليل مستلقية لا تنام . عرفت سوندا ما بها . همست لها : إنَّه لاشك يحبك يا سامورا ، لكن هل يرضى بشروطك . زوجة ، وأم أولاد ،

تعطيهم الحنان ، ويعطونك البر والاحترام ؟! . . . قلبت سامورا شفتيها ، وهمست : إذن لن يراني . . . ولن أراه . تنهدت سوندا وقالت : يا ليته يقبل .

مضى شهر كامل ، كان يرسل إليها الهدايا فتردها ، وتكتب له عليها : ليس هذا دليلاً كافياً .

انتهى العام . وانهمكت إدارة المعهد في الإعداد لحفلة التخرج ، وأرسلت الشركات والإدارات أسماء مندوبيها للحفل الختامي ، وكلفتهم أن يختاروا من يريدون من السكرتيرات ، دعت سوندا جميع العاملات في مشفى أندريه لحضور حفلة التخرج ووافق مسيو أندريه على منحهن إجازة لنصف يوم يحضرن خلالها حفلة تخرج السكرتيرات .

اقترح مدير المعهد أن تتضمن الحفلة اختيار ملكة جمال الدورة . على أن يراعى أثناء الاختبار : الطول ، وجمال الساقين ، وجمال الوجه ، وجمال الشعر ، وجمال العنق والصدر .

فوجىء الجميع أثناء الحفل بسامورا تدخل وقد لبست بنطالها ، وغطت شعرها بغطاء حريري مدهش ينسدل على صدرها تهامسن : هل أصبحت سامورا راهبة ؟! بينما ابتسمت سوندا ، وابتسمت العاملات كلهن . أما الدكتور سوفان فكان يعيش قلقاً مخيفاً . بدا الهزال على وجهه ، لكنه كان حازماً . كانت تشع من

وراء شفتيه ابتسامة مهيبة ، وكأنه اليوم على موعد . توقعت منه سامورا موقفاً ، لكنها لم تعرف نوع هذا الموقف. . . ولم تتعب رأسها في التفكير فيه .

صفق الجميع للخريجات ، وصفقوا جداً لساموار. . .

هتف رئيس المعهد لتتهيأ السكرتيرات لانتخاب ملكة جمال الدورة . شعرت ساموار بالتقزز حين قال رئيس المعهد : من كانت تلبس بنطالاً أو غطاء رأس فلتخلعه ، أقصد ساموار وسوندا وهامونيه . صمت الحفل كله حين رأوا وجه ساموار يتلون بالغضب ، ثم سمعوها تصرخ :

لا. . . لا أريد أن أكون سلعة للعرض. . . أرفض أن أشترك في حفلة الانتخاب . ولن أخلع بنطالي. . . ولن أرفع غطاء رأسي .

عجب الناس كلهم لهذا الموقف . لكن المفاجأة كانت أضخم حين تقدم الدكتور سوفان إلى وسط القاعة وصاح : أعلن طلبي لساموار زوجاً لي . فهل تقبل ؟!. . . أصبحت القاعة هي السكون بذاته ، وكادت أصوات القلوب تسمع .

ابتسمت سوندا ، وصفقت هامونيه ، وصفق الحفل كله بعدها ، إلا رئيس المعهد لكن المفاجأة كانت صاعقة على الدكتور سوفان حين قالت ساموار : أرفض عرض الدكتور سوفان إلا إذا وافق على شروطي كلها .

تساءلت العاملات كلهن : وما شروطك يا ساموراً ؟!. . .

بكت سوندا. . . وهجمت هامونيه على ساموراً تقبّل أقدامها. . .

صاح الدكتور سوفان ، وصوته يرتجف : قولي شروطك يا ساموراً ، قالت وهي تشير بيدها بحماس ممزوج بالأسى العميق : أعرف أن واحداً من الرجال لم يقبل شروطي. . . لكنني لن أقبل الاقتراب من رجل إلا إذا قبل بها. . .

* ـ أرفض أن أعيش بلا ولد .

صاح سوفان : قبلت . ابتسمت ساموراً ، وقفز قلب سوندا ، وتابعت ساموراً :

* ـ أرفض أن يكون لزوجي عشيقة أو عشيقات .

صمت سوفان وأصيب قلب سوندا بطعنة لصمته ، وتابعت ساموراً بحزم كالجبال :

* ـ ولن أكون إلا له وحده . ضجت القاعة بالتصفيق .

* ـ أريد أن أكون أماً. . . أحمل الحنان كله لطفلي. . . وأريد أن يكون زوجي أباً يعطي كل العطف لطفله. . .

بكت العاملات كلهن بكاء محرقاً . وصرخ بعضهن : ليكون الطفل سوياً لا لقيطاً . وتابعت ساموراً ، أما سوفان فقد انهار :

*ـ سأعمل ، وسأكسب المال ، بشرط أن لا يتعارض ذلك مع خدمتي لطفلي وزوجي ، لأنني لا أريد لطفلي أن تربيه الخادمات ، ولا أريد لزوجي أن يتناول طعامه في المطاعم . أريد أن أطبخ له بيدي هاتين ، إنّه حبيبي الأول والأخير . فإذا لم أستطع أن أحمل عبء البيت ، وعبء العمل ، فسأترك العمل لأتفرغ لسعادة زوجي وأولادي ، وعلى الزوج أن ينفق علينا جميعاً .

تلون وجه الدكتور سوفان بالأسى ، وضجت القاعة بالصرخات ، بعضها يؤيد سامورا ، وبعضها يلومها ، انتظر الجميع موقفاً من الدكتور سوفان . وقف ، فهدأت القاعة كلها قال : أعتذر عن طلبي ، لا أستطيع تلبية طلبات سامورا . فوقعت سوندا مغشياً عليها ، بينما كانت سامورا تصرخ :

لن ترضى . . . لأنك تريد أن تعشق . . . تريد أن تهمل طفلك .

تريد أن تستمتع بمال زوجك . . . تريد البيت محطة .

تريد لطفلك أن تربيه المربيات والخادمات .

صاحت هامونيه : أيها النساء . . . هؤلاء هم المحبون من الرجال . . . إنهم ذئاب يريدون النساء فريسة للمتعة .

صرخ العاملات اللقيطات : لتنتج المرأة طفلاً ترميه في صناديق القمامة . ليعيش لقيطاً ، لا يعرف حناناً ، ولا يدرك معنى لأم والأب . . . بكى النساء كلهن ، بينما كانت سامورا تصيح :

يجب أن نعلن ثورة على هذا المجتمع الظالم حتى ينصفنا... وإلا فسوف نهدمه... ثم سقطت مغشياً عليها... صرخ النساء كلهن :

ساموراً... ساموراً... أنقذوا ساموراً...

فتحت ساموراً عينيها لتجد سوندا عند رأسها ، والدكتور سوفان وهامونيه معها . كان وجه الدكتور سوفان شاحباً ، هنأها بنجاحها في الدورة ، وعرض عليها أن تعمل سكرتيرة عنده ، فاعتذرت وهي ترتجف... فغادر القاعة لا يلوي على شيء .

ضجت باريس كلها بما جرى في حفل تخريج السكرتيرات . وأصبح اسم ساموراً على كل لسان ، النساء يتخذنه رمزاً لتحررهن ، والرجال يعتبرونه عدوّاً لهم .

قفزت ساموراً من سريرها وقالت لسوندا وهامونيه : أنا لن أتراجع عن موقفي فهل تريدان الاستمرار معي ؟!... صرختا معاً : وحتى الموت يا ساموراً . جلسن حول طاولة ، ورحن يتناقشن :

ساموراً : أرى أن نعمل في مكان واحد من المدينة .

سوندا : وقريباً من تجمعات أكثر النساء عذاباً في باريس .

هامونيه : اللقيطات الفقيرات .

ساموارا : حسناً . إذن قرب المشفى الذي سرقه مسيو أندريه من صاحبه . . .

هامونيه : رائع . . . رائع .

سوندا : إننا نعرف العاملات كلهن في هذا المشفى . . .

ساموارا : سأغير إسمي في مكان عملي . . .

سوندا : لكنهن يعرفنك يا ساموارا .

ساموارا : سأعمل في مكان بعيد عن الأنظار . . . لن أعمل في مشفى أندريه . . . قد أعمل في أحد المحلات التجارية البسيطة .

سوندا : ومن سيقود العمل ؟!

ساموارا : سأظهر في لقاءات جماهيرية . . . أو في أماكن العمل المزدحمة بالنساء ، ولفترات زمنية خاطفة . . .

سوندا : كما كان يفعل الأنبياء يا ساموارا ؟!!

هامونيه : لا أفهم . . .

ساموارا : الأنبياء ؟!! ماذا تقصدين يا سوندا ؟!

سوندا : تقول الأساطير إن الأنبياء كانوا يحملون لواء الإصلاح . . . ويدعون الناس إلى الإيمان بمبادئهم المنقذة ، يظهرون ويختفون . . . ولا يؤمن بهم إلا الصغار والمسحوقون والحكماء . . .

سامورا : دعك من هذا يا سوندا... والآن هيا إلى العمل... سنستأجر بيتاً واحداً .

سوندا : أنا أبحث لكل واحدة منكن عن عمل...

ساموراً : اسمي أروماس... وهو عكس ساموراً...

ضحك الثلاثة... ثم قالت هامونيه ، وأنا أبحث عن بيت مناسب لنا... وقالت ساموراً : وسأبدأ فوراً بوضع دراسة عن العاملات في مشفى أندريه...

استأجرت هامونيه بيتاً فخماً فيه ثلاث غرف وقاعة ضخمة قرب مشفى أندريه ، ووجدت سوندا لساموراً عدة أماكن عمل... سكرتيرة في مجمع تجاري ضخم يؤمه الأغنياء... وسكرتيرة لمدير مرقص... ومديرة لمطعم شعبي تؤمه العاملات الفقيرات... قرب مشفى أندريه... فوافقت ساموراً على العمل في المطعم الشعبي...

أما سوندا فقد رحب بها مسيو أندريه ، ورجاها أن تكون سكرتيرة له... وعملت هامونيه سكرتيرة في قسم الأديان في الجامعة .

* * *

«عشيقة لا ، زوجة نعم»

عجب نساء مشفى أندريه حين رأين في جميع مصاعد المشفى... وعلى جميع الطاولات أوراقاً صغيرة مكتوباً عليها : (عشيقة لا... زوجة نعم...) رددن هذه الكلمات بسرور عظيم... فوجيء النساء كلهن... حين سمعن عاملة جميلة تصرخ في وجه مسيو جابون : كفاك إلحاحاً على أن أسهر معك... عشيقة لا... زوجة نعم... فقهقه وصاح بها : أيتها المجنونة... أتظنين أن أقبل بك زوجة أحمل عبأها... وهؤلاء العاملات كلهن تحت تصرفي... أختار منهن من أشاء كعشيقات... ؟!... وقفت العاملة وقالت : أسمعتن أيتها العاملات... ؟!... صرخ بها مسيو جابون : إن لم تسهري الليلة معي فسأطردك من هذا المشفى... صرخت به : لست كلبة حتى أسهر معك... صرخ بها : تريدين أن تقلدي سامورا ؟!... صرخت العاملة : لتحيا سامورا... فرددن جميعاً لتحيا سامورا...

صرخ بها أنت مطرودة من عملك... فتدخلت سوندا وصرخت : وكلنا نترك المشفى معها يا مسيو جابون... فإما أن تبقى... وإما أن نترك المشفى كلنا... صحن جميعاً : سنترك... سنترك... تدخل مسيو أندريه وقال : لا... لا... لن تطرد من عملها... أما أنت يا جابون... فستنتقل إلى مكان آخر...

* * *

في عالَم الأحلام

كانت جلسة حامية بين جابون وأندريه ، قال له : ويحك يا جابون. . . أتريد أن تغلق مشفاي ؟! . . . أجابه جابون : ما كنت أظن أن شعارات سامورا تسيطر على النساء بهذا العنف. . .

سحب أندريه نفساً عميقاً من سيجارته وهمس وهو يسبح في الخيال : يجب أن نسلك مسلكاً آخر. . . نحصل منه على ما نريد من النساء. . . دون أن نتقيد بقيودهن. . . التفت إلى جابون وقال له : والآن. . . ستعمل في القسم الخارجي للمشفى. . . ولتجد لك عشيقات خارج مشفانا. . . أطرق جابون رأسه. . . وخرج. . .

بينما كان مسيو أندريه يسير بعصبية جيئة وذهاباً ، طُرق الباب. . . ودخلت سوندا. . . تغير شكل مسيو أندريه فوراً. . . إنه يريد أن ينفذ خطة ماكرة. . .

ابتسم ابتسامة عريضة وقال : كنت بطلة يا سوندا. . . فامتلأت بالفرح. . . شعرت أنه معها. . . مد إليها يده. . . فلما صافحته ،

وضع يدها بين يديه... وراح يفركها بلطف... شعرت سوندا بالراحة بين يديه... واهتز جسدها كله بقشعريرة ناعمة... كان يتابع كلماته... مدحاً لها... كم أنت جميلة يا سوندا... أنت رائعة... عمتها النشوة... همست : أحقاً أنا كذلك يا مسيو أندريه... ؟!... ماذا يعجبك فيَّ ؟!... أجابها وهو يتابع فرك يد ها... عيناك سحر يا سوندا... سحر... وطولك يأسرني... همست له وقد انتشت كالأرض العطشى هطل عليها المطر ناعماً مدراراً... تذكرت سهرتها الممتعة... فتمنت لو ضمها... لكنها انتبهت من غيبوبتها وقالت له : عشيقة يا مسيو أندريه ؟!!... همس لها : لا... لا أريد عشيقات... لقد مللت التنقل من امرأة إلى أخرى... أريد زوجة... زوجة أرجع إليها كلما أتعبتني الحياة . عاشت سوندا في عالم الأحلام . كم تمنت أن يكون مسيو أندريه زوجاً لها... كفاها معاناة... إن عمرها قد كبر... وهي لم تعرف الزوج ولا السهر منذ تركها خطيبها... ما أحلى البيت الذي يؤويها مع زوج قادر مثل مسيو أندريه .

كان يتابع فرك يدها... وكانت هي تزداد نشوة ، وكانت كلماته تهزها من الأعماق... إنه يعدها بالسعادة في بيت هانىء .

نطق بخبث : أحبك يا سوندا... أحبك...

لم تعرف سامورا ماذا جرى لسوندا ذلك اليوم ، كانت كلمات

أندريه ترن في أذنها ، وكانت تعيش في الخيال معها . . . وبنشوة عارمة . نامت طوال تلك الليلة وهي تحتضن وسادتها منذ وصلت إلى البيت .

أما هامونيه فكانت تبكي هي الأخرى منذ دخلت غرفتها أول الليل .

حارت ساموراً . . . ماذا جرى لشريكتيها ؟! لم تنم تلك الليلة . . . كانت تفكر . . . عرفت أن هامونيه قد سقطت . . . وأن سوندا في طريق السقوط . . . أعدت لهما عشاء لذيذاً . . . ثم دعتهما للطعام .

سألت ساموراً هامونيه : ما بك يا حبيبتي ؟! . . . أجابتها : لا أستحق أن أكون معكن . . . فتحت سوندا آذانها . . . وهزتها رجفة حزينة ، وتابعت هامونيه : إنه شاب لطيف . . . في كل يوم يقذفني بكلمة لطيفة . قلت في نفسي : لماذا لا أسايره . . . قد يقبل بي زوجة ، إنه غني ، ومدرس في قسم الأديان الذي أعمل فيه ، وهو جميل . . . جميل . . . كنت أشعر بالمتعة كلما صافحته ، كانت كلماته اللطيفة تتزايد ، حتى جلسنا منذ شهر لساعة كاملة . كان يحدثني فيها عن آماله وأحلامه ببناء بيت سعيد . قال لي إنه يحبني . فقلت له : إنني أحبه أيضاً . فأشعرني أنه قد حصل على الدنيا كلها . في كل يوم كان يأتيني بقصيدة غزل . وأخيراً دعاني إلى مطعم بعيد ، فأكلنا . . . وشربنا خمراً معتقاً . ورجاني أن أقبل

دعوته في اليوم التالي ، فقبلت . كان غزله يهز كياني ، يملأ أحلامي عذوبة ولذة . وجدنا المطعم مغلقاً ، رحنا إلى مطعم آخر ، فوجدناه وسخاً . قال لي : لماذا لا نتناول العشاء في بيتي ؟! . . . ترددت ، لكنه قال : ونبحث معاً موضوع زواجنا . . . ما رأيك ؟! . . . فزال ترددي ، وذهبنا إلى بيته نتناول الطعام . . . سقاني الكثير من الخمر بيديه . . . وسقاني أكثر من ذلك غزلًا رقيقاً ، والموسيقى الراقصة الرائعة التي كانت تصدح كانت تدق أوتار قلبي ، وتهيجني ، وتكاد تقتلني ، دار رأسي نشوة وطرباً . . . وسيطرت عليَّ الخمرة ، فشربت كثيراً جداً . . . وبعد ذلك ؟! . . . تلعثمت هامونيه : وبعد ذلك . . . صرخت ساموراً : نعرف ماذا جرى بعد ذلك . . . نعرف . . . عليهم اللعنة ما أمكرهم . . . لمسات منعشة بالأيدي ، وجلسات خلوية ، وغزل مخيف ، ووعود بالزواج تطرق أوتار قلوبنا المعذبة ، نحن اللواتي نعاني الحرمان ، ونتوق إلى الزوج والطفل والحنان . ومن هنا يدخل أولئك الذئاب ، صرخت تبكي : من هنا يدخلون . . . إنهم يخدعوننا . . . إنهم ذئاب . . . ذئاب . . . ولو غطوا أنيابهم بالحرير . . . ولو لبسوا ثياب الرهبان .

وقفت سوندا وقالت : وأنا أيضاً كدت أسقط . وحكت لهما ما حدث معها . صرخت بها ساموراً : أنت في أول الطريق . . . أتذكران ما فعلت مع الدكتور سوفان حين صارحني بحبه ، لقد

تركت العمل معه . نعم تركته بفظاظة . بكت ساموراً بحرقة . . . وقالت وهي تهتز من الانفعال : أقول لكما : إنني أحبه . . . إنني أحبه . . . أحبه من كل قلبي ، لكنني لن أرضى به عشيقاً . زاد صراخها حتى أصبحت كالمجنونة : أحبه زوجاً . . . زوجاً . . . ولاأزال أحبه . . . ولاأزال أحبه . . . إنني لا أنساه . . . ولا يغيب عن خاطري لحظة من ليل أو نهار . . . لكنني لا أريد لطفلي أن يصبح لقيطاً ، لا أريد أن أصبح سلعة رخيصة بيد حبيبي لقضاء شهوته ثم يمضي . . . شهقت وبكت . . . ثم شهقت وبكت . أضجعتاها . . . وارتفع عويلهما معها أكثر مما تظنان . . .

ثلاث ساعات مضت والثلاثة يبكين بكاء مراً . . . حتى كدن يمتن من شدة النواح . . . دخلت ساموراً غرفتها . . . فدخلتا معها . . . استلقت على سريرها فاستلقتا إلى جانبها . . . خفن عليها . . . تعبن من البكاء . . . وأخيراً غلبهن النوم فنمن كالقتيلات .

كان الأسى يحيط بساموراً حين جلست مع سوندا وهامونيه على مائدة الإفطار . همست : أول العشق لمسة . . . وكلمة غزل . . . وخلوة . . .

هذا حرام كالعشق ذاته . وتابعت هامونيه : يجب أن نرفض اللمسة وكلمة الغزل والخلوة ، كما نرفض العشق . وقالت سوندا : ستكون حياتنا صعبة ، أكملت ساموراً : لكننا سنتحرر

من العذاب كله . . . وسنحرر الأجيال كلها من العذاب .

عجبت هامونيه حين دعاها بورجيه إلى سهرة ثانية . فلما رفضت قال لها بوقاحة : كأنك تتبعين مبادىء سامورا ؟! لكنك سقطت بين يدي البارحة كالحمل يا هامونيه . . . إنك ممتعة . . . كيف تتركين هذا الجمال يذوي دون عشيق . تعالي أقل لك سراً : هل تعلمين أن سامورا هي أختي ؟! . . . فوجئت هامونيه وكادت تصعق . تابع بورجيه : إن كنت ترينها فقولي لها أخوك بورجيه قد أصبح غنياً . . . تزوجت ثرية كبيرة السن . . . لا أولاد لها أصلها لقيطة . . . جمعت أموالها من عشاقها . . . ثم . . . (تردد قليلاً . . . ثم تابع) . . . ثم ماتت . . . لا أدري ما السبب ؟! المهم أنها قد ماتت . . . وورثت أنا أموالها . . . لماذا ؟! لأنني لم أتزوجها إلا بعد أن اشترطت عليها أن توصي بأموالها كلها لي . . . وفعلت المسكينة . . . كانت تحن إلى زوج يحميها . . . ويرأف بها . . . ثم ماتت . . . وخرجت أنا من الموت ، من الفقر . . . طاش صواب هامونيه من هذا المخادع . . . تساءلت : كيف ماتت تلك المسكينة بعد أن أوصت له بنقودها . . . لاشك أنه قد قتلها . . .

رأت رجلاً مسناً يقترب من بورجيه ، كانت ثيابه مهلهلة ورأسه أبيض من الشيب ، لما رآه بورجيه انقلب ذئباً . . . حاول أن يخفي علاقته مع هذا الرجل . . . أدخله مكتبه . . . وأغلق الباب . . . ثم

سمعت بورجيه يصرخ اخرج من هنا... لا أعرفك... إنك تحصد نتائج أعمالك السيئة... أتذكر يوم تركت ساموراً في المشفى ولم تدفع لها أجور علاجها... خرج الرجل مسرعاً... ووجهه شاحب مثل الليمون... كان يبكي... مر قريباً من هامونيه وهو يقول : ظلمنا أبناءنا... والآن يظلمنا أبناؤنا... صعقت هامونيه من الدهشة... اقتربت منه وقالت : أنت والد ساموراً ؟!... التفت إليها كالمذعور... ولم يجبها... عاودت السؤال... قل لي : فقد أستطيع تقديم مساعدة لك... أجابها بسرعة : أنا والد بورجيه وساموراً... نعم... أرجوك إن كنت تعرفين ساموراً فبلغيها سلامي... ثم أسرع... حاولت أن تبقيه قليلاً... لكنه رفض... سارع بعيداً... ثم اختفى...

* * *

ستبقى لك أموالك، وسأكون خادمة لك

كانت هامونيه تسرع إلى البيت بعد أن انتهى عملها لتخبر سامورا بخبر أبيها. . . فتحت الباب. . . فكادت تصعق. . . رأت الرجل يجلس على مائدة الطعام. . . وساموررا تخدمه. . . ابتسمت ساموررا وقالت : أخبرني أنه قد رآك صباح اليوم. . . دخل مطعمنا الشعبي. . . فعرفته. . . دون أن يعرفني. . . لقد مضى على غيابه عني خمس سنين. . . لكنني طلبت إليه أن يعمل في المطعم. . . إنه يبحث عن عمل. . . فوافق. . . فلما أغلقنا المطعم أتيت به معي بحجة أنه يجب أن يجيب على بعض أسئلتي حتى أبقيه عاملاً في المطعم. . . فلما دخل عرّفته على نفسي. . . فراح المسكين يبكي. . . همست ساموررا : أرجوك يا هامونيه : أسرعي إلى السوق. . . واشتري ألبسة مناسبة وحذاء ، وحقيبة. . . وهاتِ لنا بعض الحلوى. . . إنه أبي. . . ذهب أذاه مع ذهاب قوته. . . وبقيت لي شيخوخته وحنانه. . . سأبره حتى يموت. . . مقابل أن

أشعر أن لي أباً... يحبني وأحبه... همست هامونيه : هل يقبلني ابنة له يا ساامورا... يعطف عليّ... ويحبني... ويدعو لي... بكتا معاً...

جلس بيتان مساء ذلك اليوم سعيداً... ابنته ساامورا تطعمه الحلوى... وسوندا تسأله عن أحواله... وهامونيه تكوي له ثيابه...

راح يتحدث لساامورا عما جرى معه...

خرجت من مشفى أندريه يا ساامورا... ولحقت بعشيقتي... أخبرتها أنني سأتزوجها... وسوف أعطيها قطعة أرض كانت لي... فقبلت... لكنني كنت قد أعطيت أمك سانيت وكالة بالتصرف بالأرض حين غيابي... فانتهزت هذه المناسبة، وباعت الأرض... لتضغط عليَّ حتى أعود إليها... فرفعت عليها دعوى احتيال... لاتزال مستمرة حتى الآن... لكن عشيقتي طردتني من بيتها... بعد أن طردني مسيو موليان من معمله بتحريض من أمك... وقد أخبرني المحامي منذ شهر... أن المحكمة قد حكمت بإعادة ثمن الأرض لي من أمك سانيت... وطالبني بأجوره... لكنني لم أعد أملك قرشاً... فطردني هو الآخر من مكتبه... وهددني بأنني إذا لم أدفع له نفقاته... فسوف يوقف تنفيذ الحكم... لجأت إلى بورجيه فطردني... وأنقذني الله من

التشرد على يديك يا ابنتي... وأنا قد أسأت إليك... فلو لم تكوني عظيمة الأخلاق لطردتني أنت أيضاً... والحق كله معك... لكنك كريمة يا ساموراً... كما كنت وأنت صغيرة... بكت الثلاث... وراح الشيخ يبكي... وقف وقال : والآن... هل تتركنني لأذهب... همست ساموراً : إلى أين يا أبي ؟! فأجابها : لا أدري... لكن... يجب أن أذهب... أمسكت سوندا بذراعه وقالت له : ستبقى عندنا إلى الأبد... كيف تتركنا ونحن بناتك... ؟!... وقالت ساموراً : كم يريد المحامي يا أبي... التفت إليها وقال : سبعة آلاف فرنك... وإذا دفعتها فسوف يحصِّل لي ثمن الأرض ومقدارها ستة وثلاثون ألف فرنك...

سألته : إن أعطيتك المبلغ... فهل تقبل أن تبقى عندنا... لنقوم على خدمتك... وتضع أموالك في البنك باسمك... دون أن تنفق منها فرنكاً واحداً... لأنفق أنا عليك ؟! أجابها وهو لا يكاد يصدق : خذيها كلها يا ساموراً... مقابل أن ترحميني... حتى إذا مت فأرجو أن تدفنيني دفناً لائقاً... أخشى أن أموت وأنا نائم على قارعة الطريق... أو في شقة وحدي... فيأخذونني إلى المشفى ليتعلموا التشريح بجسدي بكت سوندا... وهربت هامونيه حتى تخفي شهقاتها... وأغمضت ساموراً عينيها المتفجرتين بالدموع... وتمتمت : ستبقى لك أموالك...

وسأكون خادمة لك... لتباركني وتدعو لي... ولن تموت إلا قريباً مني... وبعد عمر طويل... طويل... بكى الشيخ بيتان وقال : والآن... أنا متعب... فأين أنام... ؟!

* * *

في البيت رجل

شعر الثلاثة خلال السنة التي عاشها معهم الشيخ بيتان بالسعادة... شعرن أن في بيتهن رجلاً... كلهن يحببنه... لا لشيء... إلا لأنه أب... كن يفقدن شيئاً فوجدنه... ما أروع الأسرة التي يكرّم فيها الأب أبناءه وهم صغار ويرعاهم... ويكرمونه حين يشيخ... ويحملونه حين يمرض... لكنه حين يحول ابنه إلى لقيط... يتحول هو حين يكبر إلى عاجز يتمنى لو يصبح لقيطاً... يرعاه أحد... ولو كان غريباً... أو قاسياً... كي يشعر بالطمأنينة أنه سيدفن على الأقل بيدي أبنائه... مكرَّماً...

* * *

سأستشير أهلي وأخبرك

عجبت سوندا حين زارها جابون في مكتبها في مشفى أندريه... همس لها أريد أن أراك يا سوندا... لأمر هام... أجابت بحزم : أعرفك مخادعاً... فأقسم لها الأيمان أنه يريد أن يطلعها على أمر خطير يهم سامورا... ارتجفت حين ذَكَرَ سامورا... فلانت وقالت له : أين تريد أن أراك ؟! أجابها في أي مكان تريدين... فكرت قليلاً... ثم قالت : حسناً... هنا في مكتبي بعد الساعة الواحدة ظهراً... فمسيو أندريه يكون غائباً... ويمكنك أن تتحدث بما تريد... وافق على مضض... وفي الساعة الواحدة كان يجلس مع سوندا في مكتبها... كانت تجلس بعيداً عنه ، قال لها : هل تعلمين بما حدث لسانيت أم سامورا ؟!... سألته بدهشة : وماذا جرى لها ؟!... أجابها : رضي مسيو أندريه أن يتزوجها... على أن يسجل حضانة الأطفال باسمه... وقبلت هي بذلك... فلما حكمتها المحكمة بدفع ستة وثلاثين ألف فرنك... حاولت أن تبيع قسماً من بيتها لأندريه...

فتبين لها أنه قد غشها ، ووقعها على ورقة كتب فيها أن الحضانة له مع البيت الذي فيه الحضانة... أي بيتها... وحينما أتى رجال الشرطة لحجز ممتلكاتها لأنها لم تدفع... فرت هاربة من البيت... لكن أندريه قبل أن يدفع لها المبلغ المطلوب منها مقابل أن تثبت له ملكية البيت بشكل رسمي... فقبلت... فدفع لها المبلغ... ورضي أن يبقيها في البيت خادمة له... أتتني البارحة ، وأخبرتني بذلك كله... ورجتني أن أخبرك ، لأنها لا تطيق أن تخبرك بنفسها لكثرة ما أساءت إليك وإلى ابنتها سامورا... إنها تسألك ، هل تعرفين أين يسكن ابنها بورجيه ؟!... أجابته : لا... لكن قد أستطيع إرسال من يخبر سامورا... ابتسمت بخبث... ثم قالت : وقد ترى أنت بنفسك اليوم سامورا... دهش جابون وسأل : وأين يا سوندا ؟!... أرجوك... أخبريني... ؟!... أجابته : أنا لا أعرف يا جابون... إنها تعيش متجولة تدعو إلى إنقاذ المرأة... وإلى إنقاذ الرجل... أنا أتوقع أن أراها في أية لحظة... وأتوقع ألا أراها أبداً...

همهم جابون : يا ليتني أراها... أشعر بالحنين إليها... إنها عظيمة حقاً... صمت قليلاً... ثم تابع : وأنت يا سوندا... هل تسمحين أن أسألك سؤالاً... رأت في صوته رقة حقيقية... وبراءة... لكنها ظنته يمثّل... فقاطعته بفظاظة : دعوة إلى

سهرة ؟! أليس كذلك ؟! لن تحلم بها أنت ولا أي رجل في الأرض يا جابون... إنكم جميعاً من المجرمين... تلوّن وجهه بالأسى... وقال : إني محب حقيقي يا سوندا... عجبت لموقفه... لكنها قالت له بحزم : المحب الحقيقي هو الذي يرضى أن يكون زوجاً وأباً... أجابها ووجهه شاحب شحوب الموت : ومن قال لك أنني لا أرضى بذلك يا سوندا ؟!... بل أتمناه... أتمناه بكل قلبي... هدأت ثورتها وشعرت بالذنب ، قالت له : إذن تذهب إلى من تحبها... وتطلب الزواج منها بشرف... قاطعها : وهاأنذا أقول لك يا سوندا... أتمنى أن تقبليني زوجاً شريفاً ، وأباً لأولادي... صعقت سوندا من المفاجأة... وخيم صمت عجيب متوتر عليهما... دمعت عيناه من الترقب والحذر... ودمعت عيناها من المفاجأة التي ما كانت تتوقعها... قفزت من وراء مكتبها... واقتربت منه... قالت له : حسناً... سأستشير أهلي وأخبرك...!... فغر فاه مندهشاً وقال : أعرف أنك لا أهل لك... فمن أين أتوا ؟!... ضحكت ملء قلبها وقالت : لا... لقد أصبح لي أخوات عظيمات... وأب رحيم أرعاه... وقد تصبح لي أم قريباً... عجب وقال : وهل اشتريتهم من السوق يا سوندا ؟... ضحكا معاً ضحكة رائعة... ثم استأذن بالانصراف... مد يده ليصافحها... فقفزت إلى الخلف كالملدوغة ، ونظرت إليه كوحشة... فعجب

وقال : عفواً... لم أكن أعلم أن أتباع سامورا يمنعن المصافحة... فهمست ساخرة ، وهي تمط كلامها : مصافحة... ففرك لليد... ثم غزل رقيق... وخلوة... ثم جهنم الحمراء بعدها... ولقيط وامرأة معذبة تائهة .

خرج وهو يقول : يعجبني كلامك يا سوندا... أرجو أن تبلغيني برأيك قريباً... بعد أن تستشيري أخواتك وأباك...

* * *

زوجة حبيبة وأمٌّ مكرمة

لم تفارقه صورة سوندا الرائعة... وهو يلهث خلف عمله طوال الوقت... وأخيراً أعلنت الساعة السابعة مساءً... فتوقف كل شيء... وتوجه مع جميع العاملات والعمال إلى المطعم... جلس يتناول طعامه بهدوء... لكنه عجب حين رأى سوندا تقترب من المطعم... إنها لم تغادر المشفى... شعر بقلبه يقفز ويهبط حين رأى شابة رائعة الجمال... تسير أمام سوندا... تلبس بنطالًا... وتغطي رأسها بغطاء ينسدل على صدرها فيخفيه... التفت العاملات كلهن: همست واحدة: أهي سامورا ؟!! ضجت القاعة: سامورا... سامورا... سامورا... كن يبكين من الفرح... إنهن يرين سامورا...

قفزت إلى طاولة ووقفت فوقها: أشارت بيدها فهدأ كل شيء... قالت بهدوء:

أسألكن: هل تفضل أية واحدة أن تكون زوجة حبيبة، وأماً

مكرمة... لها طفل ترعاه، وزوج تحبه... وابن شاب يرعاها حين تكبر... أم عشيقة منبوذة... طفلها لقيط... وعشيقها له كل يوم وجه... وشيخة مسنة تدق الأبواب ويطردها أبناؤها... ؟... وقد تموت على قارعة الطريق... صرخن كالمجنونات: لا... لا... بل زوجة وأماً... زوجة وأماً...

أشارت بيدها فسكت الجميع:

والرجل هل يرضى أن يكون ابناً لقيطاً مشرداً... وصاحب نزوة يلقيها حيث يشاء يطرد ابنه... يأكل في المطعم... ولا يجد من يرفو له ثوبه... ويحفظه في شيخوخته... ويدفنه بيديه حين يموت ؟!

صرخ جابون مع النساء كلهن: لا... لا... بل زوجاً وأباً... بل زوجاً وأباً...

صرخت والانفعال يهزها هزاً: إذن ارفضن العشاق... واطلبن الأزواج... تحيين سعيدات... وتسعدن الأمة كلها... أولادكن سعداء... وأزواجكن سعداء... وأنتن سعيدات... والحياة كلها نعيم ومسرة...

هبطت بسرعة من طاولتها: ثم خرجت... واختفت... والنساء كلهن يصرخن: ساموراً... ساموراً... ساموراً رمز الحرية ساموراً... ساموراً... بكين حتى ابتلت ثيابهن... أسرع

جابون يريد أن يخفي دموعه... لكنهن جميعاً رأينه... ابتسمن وقلن : لاشك أنها دموع التماسيح...

* * *

جمعية أنصار المرأة

كان الجميع مسرورين في حفلة زواج سوندا إلا سامورا... كانت العاملات يتحلقن حولها يسألنها عن كل شيء... إنهن يحببنها... والكثيرات منهن قد لبسن مثل لباسها... كان الشيخ بيتان سعيداً بابنته سامورا... وسعيداً بمن حولها... خطرت على باله فكرة... سأل ابنته أمام الحاضرين كلهم : ما رأيك يا سامورا أن أنشىء مع جابون جمعية اسمها « جمعية أنصار المرأة » نقوم بنشر الكتب التي تدعو إلى إقناع الرجال والنساء بأفكاركن... صفق النساء كلهن... وأعلن جابون قبوله للفكرة... كانت سامورا تبدي فرحها... وسرورها... لكنها كانت تعيش قلقاً عميقاً... انتهت الحفلة... ووزعت سوندا كتباً هدية منها... تشرح فيها نوع الحياة التي تتمناها مع زوجها... وفيها رأي جابون بما تتمناه زوجه ، وبما يتمناه هو أيضاً .

عانقت سوندا سامورا... وقبّلت يد أبيها بيتان... وراحت تبكي... لن تراها بعد اليوم إلا قليلاً... صافح جابون أباها...

لكنه ما جرؤ أن يمد إليها يده. . . ابتسمت من موقفه. . . وسرت أشد السرور به. . .

ركب أبوها إلى جانبها. . . وقادت سيارتها نحو بيتها. . . همست له : أرجوك لا تغضب مني يا أبي. . . نظر إليها بدهشة وقال : أغضب منك يا ساموا ؟!. . . والله لو طلبت روحي لأعطيتك ، إنك قد حولت حياتي إلى نعيم بما تقدمينه لي من حنان ورحمة واهتمام . دمعت عيناها وقالت : اسمع ماذا جرى لأمي . فلما حكت له قال لها : قد جازاها الله جزاء ما عملت فينا يا ساموا ، طردتك من دار الحضانة ، فطُرِدت منها ، واغتصبت أموالي ، فاغتصب الناس أموالها ، وقد عانيت ما لم تعان منه هي حتى الآن ، لقد شردتني فصرت أنام في الطرقات .

أوقفت ساموا سيارتها بهدوء ، ثم التفتت إلى أبيها ، وقالت له : أرجوك يا أبي. . . هل توافق أن نزور أمي في بيتنا القديم ؟ تردد بيتان قليلاً ، ثم قال : كما تريدين يا ساموا. . . هيا إلى بيتنا القديم ، لكن أرجوك أعطني حبة مهدىء للأعصاب حتى لا أصاب بسكتة قلبية حين أدخله ، وحين أراها تعمل خادمة لعشيقها الملعون .

وصلا إلى بيت أبيها القديم ، كانت الموسيقا الراقصة تصدح ، والضحكات تملأ هدوء الليل . رنت الجرس رنيناً متتابعاً ، فسمعت بعد قليل من يقترب ، ثم فتح الباب وظهر مسيو أندريه

ثملاً ، لا يكاد يستطيع الحديث ، رأى ساموراً وأباها بيتان ، فقال : تريدان رؤية سانيت ؟! قد تركت هذا البيت منذ شهر ، ولا أدري أين ذهبت بعد أن باعتني جميع ما في البيت من أشياء ، تفضلا... تفضلا... بكت ساموراً ، ودمعت عينا أبيها... وعادا إلى سيارتها ، ورجعا إلى بيتهما .

كانت هامونيه قلقة عليهما... أين ذهبا ؟!... فلما دخلا أمطرتهما بألف سؤال... لكنها صمتت حين رأتهما حزينين .

بكت معهما حين علمت بما جرى لسانيت الأم ، لكنها قالت : سنبحث عنها يا ساموراً ، ونأتي بها إلى هنا... فما رأيك ؟... ابتسمت ساموراً من خلال دموعها ، ثم اتجه الجميع إلى أسرتهم محزونين .

* * *

المحّررات المكرّمات

عجب جابون حين استأذنت سوندا أن يسمح لها بمغادرة البيت في تمام الساعة الحادية عشرة... سألها : الثلج يهطل... والناس كلهم نائمون... إلى أين يا سوندا... ؟!... أجابته : أذكر أنني قد اشترطت عليك حين الزواج أن أغادر البيت لمتابعة عملي مع ساموزا في أي وقت أشاء... همس : هذا حق... لكن ماذا تعملن في هذا الوقت ؟!... أجابته ستعلم غداً... ستعلم كل شيء... ركبت سيارتها... وانطلقت...

عجبت كناسة شارع رينيه حين رأت ثلاثة أشباح تقترب منها ، كانت تدفع عربة القمامة أمامها بصعوبة فوق أرض الشارع المملوء بالثلج... ثم تبينت أن القادمات إليها من النساء... تناولت إحدى الثلاث منها عربتها... ووقفت أمامها ساموزا تسألها : كم عمرك يا سيدتي... ؟!... أجابتها : ستون عاماً... كان شعرها أبيض من الثلج الذي يندف فوقها... سألتها : كم يدفعون لك... ؟!... أجابت : أربعمائة فرنك كل شهر... ثم

تابعت : إنه أجر قليل يا ابنتي... لكنني مضطرة إلى العمل...
فأنا أدفع أجر غرفة مفروشة... أحتاج إلى عدة أدوية... همست
ساموررا : على كل حال... أجرك قليل... ويجب أن يرتفع حتى
يوفر لك حياة طيبة... وكم ساعة تعملين ؟ أجابتها : من السابعة
مساء حتى السابعة صباحاً... همست : أي اثنتي عشرة ساعة .
هذا مخيف... وكم ولداً لك ؟ أجابت : تركني زوجي منذ خمسة
عشر عاماً... حين أصاب جسمي الهرم... كما ترينني... كنت
جميلة في صباي... والعشاق كثيرون... لكنهم تحولوا إلى
غيري عندما كبرت... وكذلك زوجي... أما أولادي فقد آذيتهم
وآذاهم أبوهم للتخلص من نفقاتهم... رميت طفلين في أول
حياتي... فتحولوا إلى لقيطين... أما من بقوا معي ومع زوجي
فكانوا ثلاثة ، بعد أن غادروا البيت كانت أتعسهم البنت... لأنها
كانت ضعيفة الجسم... فلم تحتمل الأعمال الشاقة... ضاقت
ذرعاً بالحياة فانتحرت... ولا أعرف أين قبرها... أما
الولدان... فواحد منهم أصبح طياراً ، والثاني صاحب
مزرعة... إنهما يقدمان لي الهدايا في عيد الأم... لكن ماذا
تنفعني هداياهم... لذلك فأنا مضطرة للعمل . سألتها : وإذا
انقطعت عن عملك بسبب مرض مثلاً... فمن يطعمك
ويخدمك... تنهدت وأجابتها : لذلك أتمنى أن أموت بحادث
قطار أو سيارة... لأنني لا أملك أي وفر مالي... والآن

اعذراني... أريد أن أتابع عملي حتى لا يعاقبونني! قالت لها ساموراا : ألا ترين أن سوندا تقوم بعملك حتى لا نعطلك .

هتفت المرأة : سوندا... ؟!... زميلة ساموراا... أرجوكم احملوا لي سلاماً لساموراا... قولوا لها أن قلوبنا معك... إن أعمالك رائعة... كلنا نتمنى أن نسير على دربك... تناولت هاموتيه العربة... واقتربت سوندا من العجوز ، وتابعت العجوز : لو كنت أماً يا سوندا وزوجة... وكان المجتمع لا يرضى بالعاشقات أي لا يرضى أن يتصل الرجل بالمرأة اتصالاً جنسياً إلا من خلال الزواج لكنت الآن أنعم بعدد من الأولاد... وزوج شريف ، ومال وفير... وراحة عظيمة... وكما تقول ساموراا : لوجدت من يدفنني إذا مت... آه ما أقسى هذا المجتمع... لو رأيت ساموراا لقلت لها : يجب أن تطالبي بقتل العاشق والعاشقة... الزانِيَيْن... لأنهما بعملهما هذا يذبحان الأمة كلها... يقتلان الطفل والزوج والابن والبنت... همست سوندا : لقد وصل كلامك لساموراا يا أماه... صرخت... أنت ساموراا... هجمت على ساموراا... وعانقتها... وبكت...

سألتها ساموراا : إن قلنا لك أضربي عن العمل لتحصلي على أجر مناسب ، ورعاية مناسبة ، فهل تقبلين ؟ هتفت : أقول لك الحق... لو أمرتني يا ساموراا أن أحمل السلاح للقضاء على المجرمين الذين يسحقون نساءنا... لفعلت... ما أحلى الموت

في سبيل رفع الظلم عن كواهل العاجزين . . .

ودعت الثلاثُ العجوز . . . وبقين طوال الليل يتنقلن من عاملة إلى عاملة . . . وكذلك فعلت مائة مجموعة أخرى في أنحاء المدينة . . .

وخلال أسبوع كامل أحصين النتائج فكانت كما يلي :

ـ معظم العاملات في الأعمال الشاقة قبيحات ، أو لقيطات أو مسنات .

ـ متوسط ساعات العمل هو ثلاث عشرة ساعة . . .

ـ ومتوسط الأجور دون الحد الأدنى من الحياة المعقولة .

ـ معظم هذه الحالات نابعة من عدم وجود البيت المستقر القائم على الزواج الدائم ، لانعدام التكافل بين أبناء الأسرة الواحدة .

ـ المجتمع يزيد من حدة عذاب الناس باستغلال حاجة المحتاجات .

ـ جميع العاملات على استعداد للقيام بمظاهرات وإضرابات أو أية وسيلة أخرى للحصول على حقوقهن . . .

ـ وجميعهن على استعداد لنبذ أسلوب المعاشرة بالعشق . . . إذا أجمع الأخريات عليها . . . ويتمنين سن تشريع يعاقب الزوج الزاني عقوبات قاسية جداً . . .

ضربت سامورا الطاولة بيدها وقالت . . . الوضع مناسب . . .

سنسلك أساليب متدرجة للمطالبة بحقوقنا... حتى نصل إلى أعظم درجات العنف إن اضطررنا لذلك...

وقفت سوندا وقالت : إن هذا العمل يحتاج إلى متفرغات... سألت هامونيه : ومن أين يأتين بالمال حتى يعشن حياة كريمة... ؟!...

أجابت سوندا : نصف راتبي لكم . قاطعتها ساموراً : هذا ليس حلاً... يجب أن ننشىء جمعية تنتسب إليها النساء كلهن ، وتدفع كل واحدة منهن اشتراكاً شهرياً ، ومن هذا الاشتراك نفرغ من يلزمن لدخول الصراع .

هتفت سوندا : نسميها جمعية تحرير النساء .

قالت ساموراً : اسم عظيم ، لكننا لا نريد أن نحرر النساء فقط ، إننا نريد أن نكرمهن!!

قالت هامونيه : المحررات المكرمات...

وافقت الثلاث وهمست ساموراً : اسم عظيم .

* * *

زوج نعم ، عشيق لا

امتلأت جدران المعامل والشوارع بمنشورات تقول : ساموراً تدعوكم للانتساب إلى فروع « المحررات المكرمات » لتحقيق الأهداف التي تكفل للمرأة حياة كريمة كابنة وأخت وأم عاملة أو غير عاملة .

تلقت الفروع عشرين ألف طلب دفعة واحدة ، ومعها مائة ألف فرنك كرسم انتساب .

صاحت ساموراً : بدأ العمل الجدي. . . من تتفرغ ؟!. . . صحن جميعاً : ساموراً . وأكملت ساموراً : وسوندا وهامونيه ، ونفرغ جابون لإنشاء جمعية « أنصار المرأة » ويعمل معه أبي دون أجر ، ونفرغ في كل فرع قائدتين . هيا إلى اختيار القائدات ، وكلهن يجب أن يلبسن البنطال ، أو ثياباً ساترة مناسبة ، تعبيراً عن اعتزازهن بأنفسهن ، وأنهن لن يبحن للرجال أن ينظروا إليهن ، يجب أن لا يروهن إلا كزوجات .

سألت سوندا : ولماذا لا يلبس نساء الجمعية كلهن

البناطيل ؟!... أجابت ساموارا : نترك ذلك لاقتناعهن .

لم تبق امرأة تنتسب إلى جمعية المحررات المكرمات إلا وافقت على لبس البنطال ، فأمرت ساموارا بإنشاء ورشات لخياطة البناطيل النسائية الفضفاضة في جميع الفروع لتقديمها للعضوات بثمن الكلفة .

فوجىء الرجال كلهم بظاهرة انتشار البنطال الساتر الفضفاض بين العاملات ، ولم يعد مسيو أندريه يستطيع الصبر فجميع عاملات مشفاه قد لبسن البنطال ، وجميعهن يرفضن السهر معه ، وحتى جابون راح يؤيدهن ويدافع عن سلوكهن . تساءل : الويل لساموارا ، أتريد أن تفرض على الرجال مواقفها ، هذا لا يمكن ، إننا لن نستطيع نحن الرجال أن نلهو مع من نشاء من النساء ، سننحصر في زوجة واحدة ؟!... هذا لا يطاق... يجب أن يتحرك الرجال ، دخلت سوندا ، لم تمد يدها لتصافحه... أشارت إليه : صباح الخير يا مسيو أندريه ، ابتسم لها ابتسامة صفراء ، فقدمت له ورقة ، قرأها وصرخ : ولماذا تتركين العمل يا سوندا ؟!... أجابته ساخرة : حتى أتيح لك أن تختار سكرتيرة تلهو بها . صرخ بها : وهل حرام عليَّ أن ألهو بالنساء ؟!... أجابته : قد توضع يوماً في السجن لأنك لص... فوجىء بها ، تابعت هي : تسرق البيوت... ودور الحضانة ، كما تسرق أعراض النساء... شحب وجهه... وصرخ بها

أخرجي من هنا . . . أنت مطرودة . . . وزوجك جابون مطرود . . .
أجابته بهدوء : لو قرأت هذه الورقة جيداً لعرفت أننا قدمنا استقالتنا معاً . . . وخرجت . . . جلس مسيو أندريه يفكر كيف يقاوم أفكار سوندا وسامورا . . . بينما أسرعت هي إلى المشفى ، همست لعاملة . . . فأسرعت العاملة وهمست في أذن عشر من العاملات . . . فأسرعت العاملات . . . وهمسن في آذان العاملات كلهن . . . وبعد ربع ساعة احتشدت العاملات كلهن أمام غرفة أندريه ، عجب للأمر . . . وقفت سوندا على طاولة وصرخت :
أنتن مجرمات إن رضيتن بالأجور القليلة التي تأخذنها من مسيو أندريه . . .

أنتن مجرمات حين ترضين بهذا الوقت الطويل للعمل . . .

أنتن مجرمات إن رضيتن أن يلعب الرجال بكن . . .

أنتن مجرمات إن كشفتن للرجال أجسامكن ليتمتعوا بها . . .

أقول لَكُن : إما أن تَكُنَّ مجرمات . . . أو زوجات شريفات . . . صفقن لها . . . بينما كانت تسرع خارجة من المشفى مع زوجها جابون . . . وأسرعت العاملات إلى أعمالهن . . .

لأول مرة يتفقد مسيو أندريه أقسام المشفى . . . إنه اخترع هذه الحجة ليرى عن قرب عاملات مشفاه . . .

اقترب من واحدة تكوي الثياب في غرفة ، مد لها يده

مصافحاً... لكنها... ترددت ثم مدت له يدها... وسحبتها بسرعة... قال لها : أنت ماهرة في عملك يا هامونيه... ابتسمت له... وتابع هو : كما أنك جميلة... اكفهر وجهها... وراحت تقول : أنت جميلة... أنت حلوة... لماذا تلبسين هذا البنطال... ألا يضايقك... اخلعيه... وتعالي اسهري معي... ستشربين الخمر المعتق... وترقصين على أجمل أنغام الدنيا... وتتصور أن أذهب معك لأحمل منك لقيطاً... لتطردني معه إن طالبتك بحقوقه... كان مسيو أندريه يسرع خارجاً... وهي تبتسم ابتسامة الانتصار...

عدل من هندامه... وشرب حبّة مهدىء للأعصاب... ودخل غرفة ثانية، وجد عجوزاً، اقترب منها، فوقفت احتراماً له... كانت تعبّىء زجاجات الأطفال بالحليب، همس لها : أنت ماهرة يا مدام سوان... فأجابته : لكن عملي متعب جداً... ووقت العمل طويل... والأجور التي تعطونها لي قليلة... غضب... وحاول الخروج... لكنه عاد إليها مسرعاً... وقال : هل لديك أمنية... أجابته : أتمنى أن أجد رجلاً مناسباً... فقاطعها : حسناً... تعالي اسهري عندي الليلة... التفتت إليه بغضب وهمست له : لأرقص معك على أنغام الموسيقا... وتشربني الخمر... ثم... تفعل ما تريد... لأحمل أنا لقيطاً... أو ابناً يتيماً... أليس كذلك يا مسيو

أندريه... لكن مسيو أندريه لم يكن في الغرفة... لقد غادرها منذ ابتدأت كلامها... كان يدخل غرفة ثالثة، فيها ست عاملات يغسلن الثياب... نظرن إليه كلهن حين دخل... وشددن بناطيلهن... ورفعنها... كاد يعود... لكنه اقترب منهن وقال: إن بناطيلكن جميلة... هتفت واحدة: ولن نخلعها إلا لزوج... صرخ: ومن أين تأتين بالأزواج؟... أجابت ثانية: إذا رفض النساء العشاق... فسوف يصبح الرجال أزواجاً... ؟!... وتابعت ثالثة: كم أتمنى أن تتزوج يا مسيو أندريه، لتجد في بيتك امرأة جميلة تهيء لك بيتك... وتدفىء لك سريرك... وتغسل لك ثيابك... وتلد لك ولداً تحبه... ستعيش حياة سعيدة ولاشك...

وقالت رابعة: ليس لمسيو أندريه الآن ولد يحمل اسمه... ويصبح وزيراً أو مديراً كبيراً... اقتربت الخامسة من مسيو أندريه وكانت عجوزاً شمطاء وهمست له: لن تجد في هذه الغرفة عشيقة يا مسيو أندريه... كلهن يردن أزواجاً... وأنا كذلك... وخرج كالهارب... بينما كان الست يضحكن... صرخت العجوز: تحيا ساموراً... فأجبنها صارخات: تحيا ساموراً... صرخت: زوجاً لا عشيقاً... فصرخن: ابناً لا لقيطاً... صرخت: مصافحة... فمغازلة... فسهرة... فعذاب للنساء... صرخن: أجسادنا لن يراها الرجال... صرخت: أجسادنا يراها

الأزواج... وصرخن كلهن بحماس كبير : ساموراً... ساموراً... ساموراً...

فوجئت جميع العاملات في مشفى أندريه عند انتهاء العمل ببلاغ ملصق على جميع لوحات الإعلانات في المشفى... تجمهرن ليقرأنه... فإذا مكتوب فيه : يمنع منعاً باتاً لبس البنطال من قبل العاملات في المشفى... لأنه يعرقل الأعمال... ويحد من نشاط العاملات... وكل من تلبس بنطالاً تفصل من عملها...

أصيبت العاملات كلهن بالرعب... وراحت بعض العاملات اللواتي لم يلبسن بنطالاً يقلن لمن لبسنه : ألم نقل لكن لا تلبسن البنطال... ؟!... همست واحدة تلبس بنطالاً : سأخلع بنطالي غداً... لن أجد عملاً إن فصلوني من المشفى...

وفي بيت ساموراً كانت الأمور تبحث بجدية عظيمة .

همست ساموراً : كم عدد العاملات في مشفى أندريه ؟!

أجابت سوندا : مائة عاملة .

قالت ساموراً بحماس : حسناً... إن فصلهن سيكون كارثة على مشفى أندريه... ونحن على استعداد لتوظيفهن كلهن إن فصلن ، برواتب أفضل من رواتبهن...

سنبدأ معركة رائعة... الوقت مناسب... والمكان مناسب... هيا إلى المشفى... عجبت سوان عندما رأت عاملتين

تدخلان عليها عند منتصف الليل... خافت... وظنت أن مسيو أندريه قد أرسلهما لإبلاغها بقرار الفصل... لأنها قالت عندما قرأت الإعلان : لن أخلع بنطالي ولو فصلوني...

نهضت من سريرها... تريد أن تشعل نور الغرفة... لكنها سمعت : لا... لا... يا سوان... أنا ساموراً... التفتت إليها وهجمت عليها تضمها إلى صدرها قالت لها : نريد أن نرى جميع العاملات في غرفهن... من فصلها أندريه فسوف نشغلها نحن... إن نجحنا في هذه المعركة فسوف نطالب بزيادة الأجور وتقليل أوقات العمل...

كادت سوان تصرخ من الفرحة...

لم تبق عاملة إلا وقد عرفت ماذا ستفعل صباح الغد...

* * *

أجسادنا لأزواجنا فقط

لم يستطع مسيو أندريه أن ينام... كان عليه أن يذهب إلى المشفى في الساعة الرابعة صباحاً ليراقب تنفيذ أوامره...

دخل المشفى فلم يجد أحداً... العاملات كلهن نائمات... راح يتبختر في المماشي ، اقترب من المطعم ووقف عند بابه... رأته سوان... فأرسلت من يخبر العاملات كلهن...

تقدمت نحو المطعم مع خمس من زميلاتها يلبسن البناطيل... نظر إليهن مسيو أندريه بدهشة... ثم صرخ حين وصلن إلى المطعم : أنتن مفصولات... قالت سوان بحدة : حسناً... سنترك المشفى... صرخ بهن : هيا إلى خارج المشفى... لم يجبنه بكلمة... كاد الغيظ يقتله حين اقتربت أفواج العاملات... رآهن جميعاً يلبسن البناطيل... إلا بعض اللواتي لبسن ثياباً طويلة تصل إلى الأرض... هتفن كلهن : سنترك العمل... أو تبقى بناطيلنا... كاد مسيو أندريه ينهار... تساءل : من سيسير أمور المشفى إن تركت العاملات كلهن العمل

فيه... لكنه أسرع إلى الهاتف وصرخ: سيدي رئيس الشرطة... العاملات عندي سيتركن المشفى... ويعرضن أرواح المرضى للخطر... حضرت الشرطة... وبعدها بقليل كانت سامورا وسوندا وهامونيه بين العاملات...

سأل رئيس الشرطة: كيف تتركن العمل وتعرضن أرواح المرضى للخطر... ؟!... أجابته ساموررا: إن مسيو أندريه هو الذي طردهن... انظر إلى هذا الإعلان... قرأ رئيس الشرطة الإعلان... ثم التفت إلى مسيو أندريه وقال له: إن العاملات مصرات على لبس البنطال... صاحت سوان: لا نريد أن تكون أجسادنا منظراً يتشهى برؤياه الرجال... صحن جميعاً: أجسادنا لأزواجنا فقط... عجب رئيس الشرطة... بينما صاحت ساموررا: رواتب العاملات قليلة... إنهن يطالبن بزيادة الأجور... صرخ مسيو أندريه: أخرجي من مشفاي... لست عاملة عندي... صرخ النساء كلهن: ساموررا معنا... نريد أجوراً عادلة... لن نرجع إلى العمل إلا بأجور عادلة... كاد الغيظ يقتل مسيو أندريه حين قال رئيس الشرطة: لقد فتحت هذا الباب على نفسك... نحن مكلفون بعدم وقوع فوضى... أو اقتتال... وعليك أنت أن تتفاهم مع عاملاتك...

صرخت سوان: لتذهب عاملات المطبخ... والاعتناء بالمرضى والأطفال إلى أعمالهن... حتى لا يصاب أحد

بضرر . . . أما الباقيات فإلى بيوتهن . . .

ابتسم رئيس الشرطة . . . بينما كانت العاملات يغادرن المشفى . . . ومسيو أندريه يقتله الحزن . . . وقفت ساموروا في مركز المحررات المكرمات تخطب في جموع عاملات مشفى أندريه : هذه أول خطوة لتكريم النساء . . . وتحريرهن من ظلم الرجال . . . اكتبن أسماءكن . . . أنتن رائدات المرأة في الغرب كله . . . صحن جميعاً : ساموروا . . . ساموروا . . . ساموروا . . .

تابعت ساموروا : هل تعرف كل واحدة واجبها اليوم ؟ . . . أجبن جميعاً : نعم . . . صاحت واحدة أنا سأذهب إلى مشفى دوفان . . . وصاحت أخرى : ونحن إلى مشفى رينان . . . لنخبر العاملات بما حدث . . .

وصاحت سوان : وسأتصل أنا بمراكز المحررات المكرمات كلها . . . وأخبرهن بإرسال عشر فرنكات عن كل عضوة . . .

وصاحت سوندا : أرجو ألا تذهب أية عاملة إلا بعد أن تمر عليَّ . . . لأسلمها راتبها عن الشهر المقبل كله . . .

بكين جميعاً وصحن : تحيا ساموروا . . . تحيا ساموروا . . .

لم يستطع مسيو أندريه إدخال أي مريض لمشفاه . . . وخلال أسبوع خرج المرضى كلهن . . . وفرغ المشفى . . . فتركت العاملات عملهن وذهبن إلى مركز « المحررات المكرمات » .

كتبن على الجدران كلها : مسيو أندريه يريد عاملات بلا بنطال... لا يريد عاملات نشيطات مؤدبات... نرفض أن نكون عشيقات... نحن مكرمات محررات...

ضجت باريس كلها بما جرى في مشفى أندريه... بينما كان الرجال يقرؤون بياناً من مسيو جابون يقول : لماذا نعرض المرأة للمهانة ؟! لماذا نريد المرأة للمتعة ؟! إنها كريمة مثلنا... إن ما جرى في مشفى أندريه هو بداية خطيرة تهدد المجتمع بالاضطراب... يجب أن نعطي المرأة حقوقها... ونترك لها حريتها... كي تلبس ما تشاء... إن عاملات مسيو أندريه قد ضربن أروع الأمثلة حين لم يهملن أي مريض... إنهن يردن أن يعشن بكرامة... إنهن لا يقبلن بعرض سيقانهن على أي رجل... إنهن يردن الرجال أزواجاً لا عشاقاً... كلهن لقيطات ، محرومات من رحمة الأب... وحنان الأم... ويردن ألا يضعن لقطاء جدداً...

* * *

مظاهرات النِّساء

فوجىء الناس كلهم بمسيو سوفان يكتب في إحدى الصحف : لينتبه المسؤولون : إن مجتمعنا مهدد بخطر رهيب... النساء لا يقدرن العواقب... علينا أن نحارب رأس الفتنة... سامورا... ستوقف الأعمال جميعها ، ستغلق المصالح كلها أبوابها... سيعيش المجتمع كله في حالة انهيار ، سيدمر الاقتصاد ، إن تمت ثورة النساء .

امتلأت شوارع باريس بإعلان يقول :

سامورا تقول :

الذين يحرمون المرأة من حقوقها هم الذين يدمرون الأمة .

يريدون ابناً بلا أب... لقيطاً أو يتيماً... والمرأة لا تريد ذلك .

يريدون عشيقة يتلهون بها... لا زوجة مكرمة ، والمرأة لا تريد ذلك .

يريدون للمرأة أن تعمل ليل نهار مقابل أجر قليل... وهذا ظلم .

يريدونها عارية ليستمتعوا بمنظرها كما يستمتع الجزارون ، وهذا عار... وعبودية لن تقبلها المرأة...

يا نساء فرنسا... إن كنتن كذلك فأعْلِنَّ رأيكن .

ضجت شوارع فرنسا بمظاهرات النساء... وراح البوليس يفرقهن رغماً عنهن ، بالعصي ، وخراطيم المياه ، والقنابل المسيلة للدموع...

كن يهتفن :

سامورا... سامورا... نحن مكرمات... ولسنا عشيقات... سامورا... سامورا...

اكفهرت السماء مساء ذلك اليوم ، وأمطرت ثلجاً ، ثم هبت عواصف مخيفة... ولجأ الناس إلى بيوتهم ، إلا الكناسات المسكينات .

دقت امرأة على باب أحد مراكز المكرمات المحررات وهي تبكي... فلما فتحت لها رئيسة المركز الباب صرخت : مئات النساء تقتلهن العاصفة الثلجية... إنهن كناسات الشوارع... النجدة... النجدة...

كانت الكناسات يتحلقن حول أنفسهن يتمسكن يداً بيد حتى لا

ترميهن العواصف الثلجية ، لكن البرد المزمجر كان يجمدهن .

كانت ساموراً مع مئات من نساء جمعيات المكرمات المحررات ينقلن النساء إلى المشافي لإسعافهن ، كن يحملنهن داخل السيارات من الشوارع قطعة واحدة ، كن جميعاً مسنات يبلغن الستين .

بكت ساموراً بعنف ، وبكت النساء كلهن ، ولم تدر ساموراً أنها حين حملت تلك الكناسة التي تلبس بنطالاً أحمر أنها تحمل أمها سانيت .

ماتت العشرات من النساء المسنات من الصقيع والبرد ، وخرجت في اليوم التالي عشرات الجنازات يحملها النساء ، وأمامها لافتات تقول : لو كن زوجات وأمهات . . . لما متن هذه الميتة .

وقفت ساموراً على ظهر سيارة وصرخت :

النساء المسنات لسن للموت صقيعاً . . .

النساء المسنات يجب أن يكن أمهات آمنات في بيوتهن مع أزواجهن وأبنائهن . . . إما أن نحصل على حقوقنا أو نعلنها ثورة عارمة . . .

يا نساء فرنسا . . . لا عودة للعمل أبداً . . . لا عودة للعمل أبداً . . .

فوجئت النساء بسيارات الشرطة والجيش تحيط بهن...
وتعتقلهن...

والتقت سامورا... وسوندا وهامونيه في سجن واحد... مع
عشرات النساء...

* * *

محاكمة ساموراً

كانت سانيت غائبة عن الوعي في سريرها في المشفى... فلما فتحت عينيها رأت مجموعة من الممرضات همست : ساموراً... فبكين كلهن... قلن لها : ساموراً في السجن... وبعد ساعة ستحاكم... قفزت من سريرها وأسرعت إلى ثيابها وهي تصرخ : ساموراً ابنتي في السجن... لماذا... ؟!... زادت دهشتهن... قلن أنت أم ساموراً... ؟!... فصرخت : أنا أمها... وأنا سأدافع عنها... دلوني على المحكمة... دلوني...

دخلت ساموراً قاعة المحكمة مع ثلاثة من الشرطة والقيود في يديها... فوجئت حين رأت سوفان يدخل القاعة وهو يلبس ثياب القضاة... مع زميلين آخرين... ابتسم ونظر لها... عبست في وجهه... كانت القاعة مملوءة بالنساء... وابتدأت المحاكمة :

القاضي سوفان : لقد أثرتِ الفوضى... وهددتِ اقتصاد البلاد يا ساموراً...

سألت سامورا : وكيف ذلك يا سعادة القاضي ؟!...

تابع سوفان : العاملات قد تركن أعمالهن... فتوقف الإنتاج... وأنتن تطالبن برفع أجوركن وهذا ما لا يتحمله الاقتصاد...

سألت : الاقتصاد يتحمل مليون لقيط... وشقاء نصف المجتمع من النساء... لكنه لا يتحمل إنصاف المظلومات... أليس كذلك ؟...

تابع سوفان : هذا ليس من اختصاصي...

قاطعته سامورا : إنه هو السبب الأساسي للمشكلة... الرجال يريدون المرأة خادمة أو لعبة للتسلية... والنساء لا يردن ذلك...

تابع سوفان : أنت متهمة بإثارة الفوضى... والتحريض على الثورة ضد النظام...

أجابت سامورا : نحن نريد حقوقاً... نريد المرأة أماً... وزوجة... وعاملة غير مظلومة... والرجال يريدونها عشيقة... أو لقيطة... أو خادمة مسحوقة...

صرخ سوفان : النساء لا يردن ذلك... لا يردن الفوضى ولا هدم اقتصاد الأمة .

فوجىء الجميع بامرأة تصرخ : لا... النساء يردن ما تقوله سامورا... لماذا منع مسيو أندريه العاملات من لبس البنطال ،

وهددهن بالفصل من العمل ؟ . . .

لماذا يموت المئات من العاملات في عواصف الثلوج ؟! . . .

إنهن اللقيطات اللواتي لا يعرفن أماً ولا أباً ، إنهن المسنات اللواتي طردهن عشاقهن وأزواجهن . . . إنهن القبيحات اللواتي أهملهن الرجال لأنهن غير جميلات . . .

أهذا هو العدل ؟!

لقد ماتت المرأة في العاصفة الثلجية لأنها لا تجد ابناً يحميها ، ولا زوجاً يحترمها ، ولا بيتاً تأوي إليه ، لذلك اضطرت للعمل . . . فماتت من الشقاء . . .

صرخ سوفان : اسكتي أنت . . . من سمح لك بالكلام ؟! . . .

صرخت : أنا أدافع عن ابنتي ساموراا . . . هذا حقي . . . إنني أدافع عن كل النساء . . . بكت ساموراا وهي تنظر إلى أمها . . .

صرخ سوفان : ترفع الجلسة . . . وتعاد المتهمة إلى السجن .

* * *

أتيت لأقنعك

فوجئت سامورا بأخيها بورجيه يزورها في السجن... همست له : أهلاً أخي... جلسا معاً على طاولة السجن متقابلين قال لها : منذ مدة وأنا أبحث عنك وأتابع أخبارك... لقد أصبحت زعيمة عملاقة... لكن...!!!...

سألته : لكن ماذا ؟!... تابع بورجيه : أرى أنك قد تهورت... إنك تحاولين المستحيل يا سامورا... هل تظنين أن الرجال يتخلون عن مواقعهم بسهولة ؟!... زوجة واحدة ؟!... وأبناء لهم أعباء... ؟!... ونفقات تدفع للزوجات ؟!... وسجن جنسي لا مخرج منه ؟!... وأجور عالية للعاملات ؟!... إن هذه الأمور كلها مستحيلة... فلماذا تحاولين المستحيل ؟!...

أجابته بحزم شديد : خير للنساء أن يمتن في سبيل حقوقهن من أن يمتن في ظل عبودية الرجل ألف ميتة ذليلة كل يوم . إن رأس كل شر هو أن ترضى المرأة بالعشيق يزانيها وتزانيه ، هذا

مخيف... إنه ينتج اللقيط... واليتيم . وكره البيت... وكره الزوجة ، وبالتالي كره الأم والأب ، وبالتالي مآسي المجتمع التي لا تنتهي... أما علمت بما حدث ليلة العاصفة الثلجية ؟!

أجابها : كيف تتصورين أن يعيش الرجال والنساء دون عشق... ودون ممارسة لحريتهم وحريتهن دون قيود... ؟!... الجنس ضرورة... وحصر امرأة برجل... مستحيل... إن لي عشر عشيقات... فكيف أقتصر على امرأة واحدة... أجابته : حسناً ليكن لك زوجتان... ليكن لك ثلاث زوجات... تعيش معهن بمسؤولية... أما المتعة دون مسؤولية ، وترك المرأة تتحمل العذاب وحدها... مع المجتمع... فهذه جريمة... انظر إلى أسرتنا نحن يا بورجيه :

أبوك مشرد وأنت مطرود... وأنا لا يهتم بي أهلي ولا يدفعون ثمن علاجي... وأمك... أتدري أين أمك يا بورجيه ؟ أخيراً نبذها عشيقها ، بعد أن سرق بيتها وأمتعتها... وراحت هي تعمل كناسة في شوارع باريس تحت الثلج والمطر... بعد أن أصبحت عجوزاً... هل يرضيك هذا يا بورجيه ؟!... يجب أن تقف إلى جانبنا... أم تريد أن يكون ابنك معذباً مثلك ؟... هذا إذا اعترفت به... ولم يتحول إلى لقيط أو يتيم...

وقف وقال : أتيت لأقنعك... لكن يبدو أنه لا فائدة... أقول لك : تريدين أن تمنعي العشق يا ساموراً... والأنبياء

أنفسهم كانوا عشاقاً... أمسكت به وقالت له : لن أتركك حتى تخبرني من هم الأنبياء... وكيف عشقوا... ؟!... همس لها... خذي اقرئي هذا الكتاب... وناولها كتاباً فتحته فوجدت عنوانه « حياة محمد » ﷺ .

فأدارت ظهرها وهي تنظر إلى الكتاب... وغفلت تماماً عن أخيها بورجيه... الذي صاح بها : ساموررا... هل أزورك مرة أخرى... ؟!... التفتت إليه ، وودعته ، ثم قالت : لو أتيتني بكتب عن الأديان التي تدرسها يا بورجيه ، ثم ألا تشعر بالحنين نحو أمك وأبيك... ؟!... حك رأسه ، وقال : لا أظن... لقد ظلموني... ولا أشعر بالحنين نحوهما... وغادر السجن...

* * *

كيف أصبح مسلمة ؟

لم تستطع سامورا أن تنام وهي تقرأ « حياة محمد » ﷺ. . .
كانت تجد في كل صفحة مفاجأة مذهلة. . .

الرجل يدفع مهراً حتى يتزوج. . .

الزاني المتزوج يرجم بالحجارة حتى الموت. . .

الزوج ينفق على بيته وزوجه وأولاده. . .

الجنة تحت أقدام الأمهات. . .

بر الوالد والوالدة فرض. . .

رعاية الوالدين للأبناء فرض. . .

رعاية الأخ لأخته فرض. . .

الأخ ينفق على أخته وأمه وأبيه. . .

المرأة ترث. . . وتتاجر بمالها. . .

لا مصافحة ، لا غزل ، لا خلوة ، لا زنى. . . لا نظرة. . .

لباس المرأة يستر جسدها كله...

المرأة مثل الرجل في الحقوق... وللرجل حق الرعاية وإدارة الأسرة...

كادت تصعق من هول المفاجأة... إن ما تنادي به... وما تموت من أجله موجود في دين محمد ﷺ بصورة تفوق كل ما تسعى إليه.

أخبرت سوندا... وأخبرت هامونيه... وأخبرت كل السجينات... وجدت بعض السجينات قد ثرن ضد « محمد ﷺ »... وكاد صف النساء ينشقق... فتركت الحديث عن محمد ﷺ لكنها استمرت تقرأ كل الكتب التي أتاها بها أخوها في الزيارات التالية عن الإسلام ومحمد ﷺ.

تابعت سيرته مع زوجاته فوجدته مثالًا للرعاية والحب والحنان...

آمنت بالإسلام... وآمنت بمحمد ﷺ... لكن كيف تصبح مسلمة... ؟!... لم تعرف... ولم تشأ أن تفاتح بهذا أحداً...

آمنت معها سوندا... وآمنت هامونيه... لكنهن لم يعلن عن إسلامهن شيئاً...

* * *

حياة كريمة أو الموت

افتتحت المحكمة مرة أخرى. . . وجلس سوفان كأنه يريد أن ينتقم. . . لم يدع ساموراً تتكلم بكلمة. . . قال : حكمت المحكمة بسجن ساموراً سنة كاملة لتحريضها على الفوضى. . . ودعوتها إلى الإضراب. . . والإضرار بمصالح الناس. . .

لكن الأمور كانت تسير على غير رأيه. . . هجم النساء على السجن. . . ومزقن أوراق المحكمة. . . وأخرجن ساموراً. . . ورحن يهتفن. . . ساموراً. . . ساموراً. . . زوجاً لا عشيقاً. . . ابناً لا لقيطاً. . . حياة كريمة أو الموت. . . أحاطت الشرطة بالنساء. . . وحاولوا تفريقهن لكن دون جدوى. . .

وقفت ساموراً وسط الجموع وصاحت : سأذهب إلى السجن لأمضي فيه عاماً ، وبعدها سنلتقي ، إننا لا نريد التخريب. . . نريد حقوقنا. . . أتوجه إلى الرجال وأقول : إن معركتنا لا يمكن أن تنتهي إلا بالحصول على حقوقنا كاملة. . . وإلا فإنني أنذرهم .

صاح النساء وهن يبكين : ساموراً. . . ساموراً. . .

هتفت: إن كنتن تحببن ساموراً . . . فلا تتنازلن عن حقوقكن . . .

زوجاً لا عشيقاً . . .

طفلاً حبيباً لا لقيطاً . . .

أباً وأماً وأخاً وأختاً في بيت واحد مكرم . . .

وأقول :

على الرجل أن يدفع للمرأة مهراً .

وعلى الزاني أن يموت رجماً .

هاجت جموع النساء بالحماس . . . وبكت العيون فرحاً وحزناً معاً . . .

صاح رجل : أريد زوجة وطفلاً . . . أنا معكن . . . أنا صاحب معمل جوارب . . . سأعطي العاملات أجوراً مثل الرجال . . . ولن يعملن أكثر من ثماني ساعات . . .

وهتف آخر : أنا نائب بالبرلمان . . . سأتقدم بقانون يحمل جميع طلباتكن .

بكت جموع النساء . . . وصحن . . .

ساموراً . . . ساموراً . . .

بينما كانت ساموراً تتجه إلى السجن . . .

* * *

مناقشات البرلمان

استمر البرلمان أحد عشر شهراً وهو يناقش اقتراح النائب موليه .

كانت البلاد كلها تتابع أخبار المناقشات ، كانت وفود النساء يملأن البرلمان كل يوم. . . والمظاهرات السلمية تملأ الشوارع ، وسامورا من غرفتها داخل السجن تتابع وتوجه. . . وانتهى العام .

وأحاطت ألوف النساء بالسجن ، وحملن سامورا حينما خرجت ، وأوصلنها إلى بيتها . كان جابون يبكي فرحاً لخروج سوندا . وتلقى بورجيه حبيبته هامونيه ، وطلب منها الزواج ، فقالت له : كم ستدفع مهراً ؟!. . . فقال : ما تريدين يا هامونيه. . . أجابته : غداً نلتقي في بيتنا .

فوجئت سامورا حين دخلت بيتها فرأت أباها يبكي ، لقد أصبح عاجزاً ، فرح بها جداً .

وعند منتصف الليل طُرق الباب . فقالت هامونيه : إنه بورجيه

لاشك . لكن سانيت الأم كانت هي التي تقف في الباب . ضمتها ساموروا وهي تنادي : أمي . . . أمي . . . وبكتا بحرقة .

دخلت الأم ، فبكى الشيخ من الفرحة ، قام لسانيت وصافحها ، فقالت له : هل تقبلني زوجة بارة ؟! . . . بكى من الفرح .

وطرق مرة أخرى ، فدخل بورجيه ، قال : أتيت أطلب الزواج بهامونيه ، صعق حينما قالت له ساموروا : بعد أن تصبح مسلماً باراً لأبيك وأمك يا بورجيه!! إن هامونيه مسلمة . . . لا تتزوج إلا مسلماً .

ومضت الليلة كلها في حوار طويل شاق ، انتهى بإسلام سانيت وبورجيه وبيتان . . . وتم زواج هامونيه .

كانت تلك الليلة آخر ليلة سعيدة في حياة ساموروا . . .

* * *

نهاية سامورا

أجمع البرلمان على رفض مشروع موليه ، وصدَّق على قانون معاكس يفرض على المرأة أن لا تمارس الإضراب ، وأن لا تمارس أي حق سياسي ، ورفض أي تعديل في وضع المرأة لمدة خمس سنوات على الأقل .

أحاطت الشرطة ببيت سامورا ، لكنها لم تكن فيه ، كانت في بيت أخيها بورجيه .

فلما عرفت لبست لباس رجل واختفت . وامتلأت شوارع فرنسا بالدعوة إلى الثورة ضد من يضطهدون المرأة ، ويريدونها عشيقة لا زوجة ولا أماً ، ويريدون الولد لقيطاً أو يتيماً. . . لا ابناً لا يعرف حنان الأم والأب. . .

وارتجت فرنسا كلها حين أعلنت دوائر البوليس مقتل سامورا ، واشتعلت في البلاد ثورة لاهبة في سبيل تحرير النساء. . .

فهل تصادف النجاح بعد سامورا. . . ؟!!!

لابد أن تنتصر ثورة النساء في العالم كله ، لابد أن يحققن ما أعطاهن الله . . . لابد أن يصبحن كما أراد الإسلام . . . مكرمات . . . محررات . . . زوجات لا عشيقات . . . أمهات لا خادمات . . . مقدسات لا مهانات . . . فمتى يتم لهن ذلك ؟!! .

* * *

الفهرس

* * *